البوذية

الهند بالنسبة لبوذا

يحدد العلماء سبعة عصور تاريخية في تاريخ الهند. يمتد الأول منها على طوال أربعين ألف عام، وينتهي بحضارة خارابا. وهو عصر ثقافة البرونز. وهذا العصر قريب من ثقافة وادي الرافدين (الثقافة السومرية)؛ وقد انتهى في أواسط الألف الثانية ق.م. ويدعى هذا العصر بالعصر قبل الفيدي، لأن العصر الفيدي أتى بعده مباشرة.

وبيّنت أعمال السبر الآثاري التي جرت في عشرينيات القرن العشرين في شمالي الهند في وادي نهر الغانج، أن حضارة خارابا قد بلغت مستوى عالياً من التقدم والرقي.

فقد كشفت أعمال السبر الآثاري التي جرت في تل موهنجو - دارو (تل الأموات)، عن آثار واحدة من أقدم المدن على سطح الأرض. منازلها مؤلفة من طابقين، مبنية من الآجر، شوارعها ضيقة متقابلة في زوايا قائمة. وقد بنيت زوايا المنازل مستديرة لتسهيل حركة النقل والسير في الشوارع. ومُدّت تحت الأرض على امتداد الشوارع أنابيب من الفخار تشكل منها نظام الأقنية. واحتوت المنازل على حجر خاصة بالاستحمام. كما بنوا في المدينة حمامات عامة مزوّدة بأنظمة لتسخين الهواء. وأسفرت الحفريات أيضاً عن كثرة من المصنوعات البرونزية، والحلي، والأواني الطينية التي صنعت على دولاب الفخار. وكانت هذه غنية بالزخارف، ومشوية في أفران خاصة، وعثر كذلك على دمى آلية للأطفال.

واكتشفت عند نهر الإيند (السند) مدن أخرى مماثلة، وقد دعيت الحضارة التي كانت تنتمي إليها هذه المدن بحضارة الإيند. وعثر هنا على آثار مكتوبة، إلا أن قراءتها لا تزال عصية على المتخصصين حتى الآن. والآثار المقصودة هنا هي نصوص مكتوبة على أختام، ترافقها صور حيوانات. وتبين أن هذه الحضارة قد تقدمت على حضارة مصر وحضارة سومر مباشرة.

لقد هلكت حضارة الإيند هذه في وحدتها، ويبدو أن كارثة طبيعية قد أودت بها. ويعتقد المتخصصون أن المكان كان في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد، مركزاً لهزة أرضية شديدة لم تهدم ضفتي نهر الإيند وحسب، بل غيرت مجراه ونظام فيضانه على وجه العموم.

في أواسط الألف الثانية قبل الميلاد، اجتاحت الهند من الشمال قبائل الآريين. ومن المعروف أن إقليم الأنهار السبعة، هو الموطن الأصل لهذه القبائل. فمن هناك انتشروا إلى الهند، وفارس، وسهول روسيا. ويعدّ السلاف أحفاداً مباشرين للآريين، وهذا ما تؤكده الوحدة اللغوية لهاتين الجماعتين القبليتين. لقد دفع الآريون بالسكان الهنود المحليين إلى جنوب هندوستان وجزيرة سيلان. وأطلق الغزاة على أنفسهم اسم النبلاء (الآريين)، لكي يميزوا أنفسهم عن السكان المحليين ذوي البشرة السوداء. وقد كتب الآريون وتحدثوا باللغة السنسكريتية، وهي لغة قريبة من اللغات الأوروبية.

لقد كان الآريون قوماً رعاة، وحافظوا طويلاً على الطقوس الرعوية البدوية. فقد كانوا يحرصون على إبقاء النار مشتعلة في الخيمة دوماً، وكانوا يؤدون الشعائر ذات الصلة باستعمال الحليب في الطعام، ويقدمون الجياد قرابين و... أما الزراعة فقد تعلموها على أيدي السكان المحليين.

وحمل الآريون معهم إلى الهند كتابهم المقدس: الفيدات (المعارف). ولا يرى المتخصصون أي صلة مباشرة بين كلمة «فيدات» والكلمة الروسية «فيدات»[1]، وينسحب هذا على كلمات أخرى مشابهة أيضاً. فكلمة «إله» مثلاً، تكتب بالسنسكريتية «بهاغا»، بينما تكتب باللغة الرونية القديمة القريبة من السنسكريتية، «باغا». كما إن لفظ اسم إله النار أغني، يشبه لفظ كلمة «أوغون»[2]، كذلك لفظ اسم إله الريح فيغو يشبه لفظ كلمة «فييات»[3]، ويشبه لفظ اسم إله العاصفة براجنيا، لفظ اسم الإله بيرون، و.. ولم يكن السلاف وحدهم الذين عاشوا العصر الفيدي في تاريخهم، بل ثمَّة شعوب أخرى كثيرة عرفت هذا العصر. ففي ميثولوجيات كثير من شعوب أوروبا وآسيا (الإغريق والفرس و..)، شخصيات تشبه الشخصيات الفيدية.

١- يعرف، يعلم. - المترجم.
٢- نار. - المترجم.
٣- يهب. - المترجم.

والفيدات الرئيسة، هي أربع فيدات: أوتغفيدا (كتاب الأناشيد)، وسامافيدا (مجموعة الشعائر والأناشيد)، وياجورفيدا (صيغ الصلوات التي تؤدى أثناء تقديم الذبائح)، وأنارفافيدا (مجموعة الأغاني والتعاويذ، وهي أحدث عهداً من شقيقاتها الثلاث السابقات). وتسمى الأناشيد والصلوات التي ترفع إلى الآلهة: مانترات.

ولا تنقل المعارف الفيدية عبر الفيدات فقط، إنما عبر البراهمنات أيضاً. والبراهمنات، هي مجموعات من المعطيات عن الشعائر والقواعد والطقوس، دُوّنت وأُلحقت بالفيدات. وهناك أيضاً الإرشادات (الأوبانيشادات) التي تضمنت أقدم الرؤى الفلسفية الهندوسية. وهذه بالذات، هي الأساس الذي قام عليه كل التطور الروحي الذي عرفته الهند بعد ذلك. واتحدت البراهمنات والأوبانيشادات في الأرانياكي. وهذه الأخيرة هي آخر الحلقات التي تجمع الجانب الشعيري للدين الذي عرضته البراهمنات، مع الفلسفة التي عرضتها الأوبانيشادات. أما المانترات فقد كتبها شعراء، وكتب البراهمنات كهنة. وصنّف الأوبانيشادات فلاسفة، ونحن يمكننا أن نرى في هذه ثلاث ديانات مختلفة جمعت في دين واحد: دين الطبيعة في المانترات، ودين القانون في البراهمنات، ودين الروح في الأوبانيشادات.

إن الفيدات، والبراهمنات، والأرانياكي، والأوبانيشادات، هي كتب أعطيت للناس عبر الوحي الإلهي. وتدعى هذه كلها: شروتي، أي تلك التي سُمعت. وهناك السوترات أيضاً. وقد وضعت هذه في صيغة موجزة ومبسطة لكي تساعد على تعليم الدين. وينتمي أكثر السوترات إلى أدب مجموعة سميرتي، ومعناها: الذي يمكن تذكّره. وتنسب السميرتي إلى معلمي الديانة المعترف بفضلهم ووقارهم.

لقد كانت معرفة الفيدات إلزامية في الهند القديمة، كإطعام الحيوانات، والطيور، واستقبال الضيوف، وتقديم كأس من الماء لظمآن، وتقديم الذبائح للآلهة. فالعوالم كلها مجتمعة في الفيدات وقائمة عليها: هكذا اعتقد الهندوس في تلك الأزمنة. وهذا بالضبط ما يراه أتباع كريشنا في أيامنا هذه. إنهم يرددون مع القدماء: إن الفيدات مصدر الأشياء والصفات كلها. كما يعترف البوذيون بدورهم

بوقار الفيدات. وحسب اعتقادهم أن ثلاث فيدات متضمنة في ثلاثة أحرف الكلمة السيخية آوم.

ويبلغ عدد الآلهة الرئيسة في الميثولوجيا الفيدية ثلاثة وثلاثين إلهاً، يتوزعون على آلهة أرضيين، وجويين (الذين يقيمون بين السماء والأرض)، وسماويين، لكن الكتب القديمة تذكر عدداً أكبر من الآلهة: 333، بل و 3339 إلهاً.

ويعد إيندرا الإله الأقدم والأشهر بين آلهة الفيدات. وتمجده هذه في مئتين وخمسين نشيداً. واسم إيندرا نفسه يعني القوة، والخصب، والمبدأ الذكوري. لقد كان إيندرا إله الآريين القبلي. إنه إله المقاتلين الأصهب الذي ينازل أعداءه الكثر، ويرمح في المركبة أو يجلس على متن فيل. وإيندرا هو الذي خلق الشمس، والسماء، والفجر. وهو ودود تجاه قبيلته (قبيلة الآريين) فيلهم شعراءها ومغنيها. ولإيندرا قدرة على التحول إلى أي كائن أو شيء. فقد وصفوا كيفية تحوله إلى نملة، بل إلى شعرة في جسد حصان. وفي الفيدات يظهر إيندرا إلهاً للرعد. وعلى وجه العموم، فإن الآلهة في الفيدات لهم وظائف متعددة. وهم مسؤولون عن شؤون عدد من البيئات. ويقول العلماء، إن للآلهة الفيديين طابعاً تركيبياً.

ولكن زعامة الآلهة عند الهندوس فريدة من نوعها، فالإله الأكبر، هو الإله الذي يوجهون الخطاب إليه في اللحظة المعنية. ومع ذلك ثمَّة إله أكبر ثابت دوماً، هو الإله فارونا (وكملة «فار» معناها يحيط، يغطي). ويعد هذا الإله الأكبر قاضياً وحارساً للشرائع، وهو الذي أقام النظام الكوني. لقد فصل فارونا بين السماء والأرض،، ويرقب العالم بألف عين. ويحاكم البشر وينزل العقاب بهم جزاء ما اقترفوا من آثام. أما الإله الرئيس الآخر فهو الإله ميترا، ومعنى اسمه الصديق (الاتفاق، الوفاق). ويظهر هذا مع فارونا ثنائياً إلهياً، إلا أن ميترا يجسد الشمس والنهار، بينما فارونا إله ليلي في غالب الأحيان. ويدعى إله السماء دياوس، عند الهندوس أباً. وتجسد إلهة الأرض أديتي الأزل واللانهاية. وأبناء هذه الأخيرة، هم إيندرا، وميترا، وفارونا إضافة إلى أربعة آلهة آخرين، وثمَّة إلهة أخرى عاطفية جداً، هي إله الفجر، الفتاة الوردية أوماس (أوراس). ففي كل صباح تخف هذه إلى موعدها لكي تعرض جمال عريها. وهذه عند الإغريق، هي إلهة الصبح أفرورا (ومعنى كلمة «أوش» أو «أور» «يتقد»، «يتحرّق». وننوه في السياق إلى أن الإله الإغريقي زيوس هو مثيل إله السماء الهندوسي دياوس. ولا يقتصر التطابق هنا على وظائف الإلهين، إنما على لفظ اسميهما كذلك.

وكما عند الإغريق كذلك عند الهندوس، فقد سرق أحد الكهنة إله النار أغني من السماء، فحصل الإنسان بذلك على النار. ومن المعروف أن بروميثيوس الإغريقي هو الذي حمل النار إلى الإغريق. ولكن الإله سوما هو الإله الذي يعكس غرابة الآلهة القدماء. فهو المطر، وهو المشروب الإلهي في الآن عينه: يعدونه من سيقان النباتات. وإذا ما مزج هذا المشروب مع الحليب، فإنه يثير ويسكر. ومعنى كلمة سوما بالسنسكريتية، هو القمر. أما الإله فيشنو، الذي عُدَّ فيما بعد واحداً من أكثر الآلهة جبروتاً، فلم تذكّره الفيدات إلا كإله عادي أمثاله كثر جداً.

ولم يعرف الزمن الفيدي بناء المعابد، ولذلك كانت الطقوس الدينية تقام تحت السماء مباشرة. وكانت الأضحية تحمي الإنسان طوال حياته. وقد أقام الآريون لآلهتهم ولائم بهيجة. لقد كان الآلهة أعظم الضيوف عند الآريين، فاستقبلوهم على الرحب والسعة، وقدموا لهم الطيبات بكثرة، وعملوا على كفايتهم من كل شيء. وأدوا على شرفهم أناشيد المديح ورقصاته. وطيّبوهم بالعطور، وهو ما تتميز به العبادات الهندية كلها.

لقد كانت العبادات الدينية في العصر الفيدي تشبه السحر والشعوذة. فكان البراهمن (الكهنة) يتنبؤون، كما مارسوا فنون المداواة، واستخدموا الأعشاب، والتعاويذ، والحجارة استخداماً واسعاً في هذا الميدان. ولا نزال حتى يومنا هذا نصادف كهنة - أطباء العصر الفيدي في كل مكان من العالم.

لكن الآريين لم يقدموا لآلهتهم سوى الأطعمة النباتية، إلا في مناسبات خاصة، إذ كانوا ينحرون لهم عندئذٍ من حيواناتهم. وكان طعام الآلهة يشبه في غالب الأحيان، أرغفة اليوم، أو الفطائر التي تصنع من دقيق القمح أو الرز. وسقوهم حليباً أو شراب السوما، الذي يعتقد المتخصصون أنه كان له خصائص مخدرة.

والتزم الآريون التزاماً صارماً بشعائر تقديم القرابين. فكانوا يقدحون النار بطريقة الحك، ثمَّ يضرمون نيراناً. وكانت الأدوار موزعة توزيعاً صارماً، مرة وإلى الأبد: يقرأ أحد الكهنة الصلوات، والثاني يغني، بينما الثالث منهمك بإعداد طعام القربان. زد إلى هذا أنه كان يجب على كل رب أسرة أن يقدم القربان ثلاث مرات يومياً في منزله. لكن مراسم تقديم القربان المنزلي كانت ميسرة جداً.

لقد كان الآريون يحتفلون بقدوم كل فصل من فصول السنة بتقديم القرابين.

وكان العنز هو الذبيحة الأساسية في مثل تلك الاحتفالات. فيقدمون من لحمه

للآلهة، ويوزعون الباقي على الناس. وعندما كانوا يصنعون مشروب السوما، كانوا ينحرون أحد عشر عنزاً دفعة واحدة.

وفي بعض الأحيان كان الشعب كله يشارك في تقديم الذبيحة. وكانت مثل هذه المناسبات تقام بأمر خاص صادر عن الملك. كما كان يعد لها إعداداً يستمر طول العام. وكان يقدّم حصان ذبيحة فيها. وقد دعيت مثل هذه الذبائح: أسمافيدا. لقد كان الجواد الذي يقع الخيار عليه ذبيحة، يجوب البلاد كلها برفقة أربعمئة شاب. وفي الطريق من مكان لآخر كان الحصان يُغسل طقسياً. وفي اليوم المحدد كان يعود من جولته الشعيرية، فينحر في قصر الملك. وكان ينبغي على الملكة أن تستلقي إلى جانب الجواد المحتضر وتحضنه. لقد كانت ذبيحة الحصان احتفالاً شعبياً كبيراً ترافقه الموسيقى والرقص وشتى ضروب المباريات. ومن المعروف أن القدماء كلهم ألّهوا الشمس، وقد افترضوا أن الحصان في الذبيحة الموصوفة هنا كان يجسد الشمس. ومن الجدير ذكره أن الطقوس التي كان لها صلة بالحصان، كانت شائعة عند الشعوب الهندوأوروبية الأخرى، وعند السلاف أيضاً.

لقد تحول الآريون شيئاً فشيئاً إلى نمط العيش الحضري. وأسسوا إمارات دارت بينها صراعات. لكن الدين الذي بقي فيدياً، كلّس المجتمع. وتزايدت في غضون ذلك قوة الدور الذي كان يؤديه الكهنة - البراهمن. وعند أوائل الألف الأولى قبل الميلاد، كان قد تشكل نهائياً النظام الاجتماعي الديني الكاستي. ومع أن سمات الديانة الفيدية وإرشاداتها كانت قد اتحدت وقتئذٍ، إلا أن المتخصصين ميزوا هذا العصر بمصطلح البراهمنية. وعلى وجه العموم، لم تتعاقب الأنظمة الدينية في الهند بعضها مع بعض تعاقبا دقيقاً، بل كانت التعاليم الجديدة تنشأ من قلب القديمة. ولم تكن تنفصل عنها انفصالاً تاماً في بعض الأحيان. ويمكن القول: إنها كانت تتراكم فوق التعاليم القديمة. ومعنى هذا أن الدراسات الفيدية كانت تتطور جامّة في ذاتها مزيداً من التعاليم الدينية الفلسفية.

إن عصر البراهمنية هو قبل كل شيء، العصر الذي انقسم فيه المجتمع نهائياً إلى كاستات، وقد انتهت عملية الانقسام تلك في القرن الخامس قبل الميلاد، ورسختها بعد ذلك «قوانين مانو». ومانو هذا هو حاكم الهند القديمة، وهو شخصية شبه خرافية. وقد كان من الأصح أن نتحدث عن الفارنات لا عن الكاستات. فالانتماء الفئوي والتراتبية أو التفرقة عبروا عنها كلها بمصطلح «جاتي»، أما مصطلح «فارنا» فإنه يستخدم للدلالة على الفئات الأربع الرئيسة، التي تشكلت في أثناء عملية التطور الاجتماعي. وكانت قد تشكلت في أول الأمر ثلاث فارنات: البراهمن (الكهنة)، والكشاتري (القادة العسكريين)، والفايتي (الحرفيين، والتجار، والعاملين الأحرار، والفلاحين). ثمَّ ظهرت بعد ذلك أدنى الفئات، وهي فئة السودرا، التي كان ينتمي إليها أسرى الحروب، والعبيد،

ومجموعات القبائل الدرافيدية، أي سكان البلاد الأصليون الذين لم يندغموا بالآريين.

ولم يقتصر ظهور الكاستات على الهند وحدها. فقد كانت هذه الوحدات الاجتماعية المغلقة معروفة في كثير من الثقافات والحضارات القديمة: في مصر، وبابل، وروما، واليابان. وفي العصر الإقطاعي المبكر ظهرت الكاستات في إنكلترا، وأسبانيا، وفرنسا. لكن الكاستات في الهند لم تندثر مع الوقت، كما حصل في البلدان المذكورة هنا. ونشير في هذا السياق إلى أن البرتغاليين هم من أدخل مصطلح «كاستا» ميدان التداول العلمي. وقد عنى هؤلاء بهذه الكلمة، التباينات العشيرية والنوعية في المجتمع الهندي.

وقد وردت خرافة في «الريغفيدا» تقول: إن الكاستات الأربع خرجت من الإنسان الأول (بوروشا). ويقول النشيد الريغفيدي «بوروساسوكتا»، إن البراهمن خرجوا من فم بوروشا، والكشاتري من يديه، والفايتي من وركيه، والسودرا من قدميه. وفيما بعد رد البراهمن منشأهم إلى خالق الكون براهما، وهو الإله الأعظم عند الهنود القدماء.

ويعد أفراد الكاستات الثلاث العليا مولودين مرتين، فعندما يبلغ ذكورهم طور البلوغ، يقيمون لهم طقس التكريس في الولادة الثانية. ويمنح المكرّس شارة المولود مرتين، وهي عبارة عن شريط من ثلاثة خيوط. وقد كان هذا يمنحه حق الزواج، وتأسيس أسرة خاصة به. أما أفراد السودرا فلم يكن لهم سوى ولادة واحدة. وحُرِّم عليهم أن يقيموا علاقات وثيقة مع «المولودين مرتين». فقد كان أفراد كاستة السودرا خدماً، وعمال نظافة، وزبالين، وغسالين، وأشباه عبيد (عبيد المديونية). كما كان ثمَّة كاستا تدعى كاستا الباريي، أي المحرّمين، وقد عاش هؤلاء منفيين، معزولين في محميات محرّمة، أو خارج حدود المدى. كما حرم على هؤلاء تحريماً صارماً دخول معابد الهندوس، والبوذيين، والجاينيين.

ويظهر في الطور البراهمي إله جديد، خالق الكون، هو الإله براهما. وليس لهذا الإله وجود في الفيدات. ففي هذه الأخيرة براهمان، وهو شيء من مبدأ كل شيء، العلة الأولى. ولكن هذا في الفيدات، هو على الأرجح مصطلح فلسفي أكثر منه اسم إله. وفي الطور البراهمني صار هذا إلى إله رئيس. وقد حمل مفهوم براهمان في الفيدات مبدأ لا شخصية له. وفي الطور البراهمي ظهر مفهوم المبدأ المشخّص: أتمان، ومعناه «أنا».

وليس في الفيدات لوحة متناسقة لخلق العالم، مع أن تصورات محددة عن ذلك كانت قد ظهرت من قبل. فقد وصف فيها أكثر من تنويعة من تنويعات خلق العالم: من عدم مبهم عبر تكثيفه، أو من جسد الإنسان الأول

بوروشا ذي الألف عين، أو الألف يد، أو الألف رأس. لقد جزّأ الآلهة جسد بوروشا، فخرجت منه الفارانات، ويتوضع العالم السفلي تحت الأرض. ويمضي كل ميت إلى هناك قاطعاً نهراً واسعاً على ظهر بقرة. ويحكم هناك في العالم السفلي إله الأموات ياما. ويتلقى الإنسان في ذلك العالم جسداً جديداً عصياً على الأمراض، والعاهات والآلام الفيزيائية. ومع ذلك يوجد في العالم الآخر كثير من البقر، والحليب، والسمن، والعسل. وفي العصر الفيدي كان موقف الآريين من الموت سلبياً. فهم لا يسعون إلى قطع سلسلة الآلام اللامتناهية، وإنما يكثرون من الصلوات لإبعاد الموت عن منازلهم. وحسب الفيدات أنه ليس في العالم الآخر أي جهنم، مع أنه قيل فيها، إن سيلاً من الدماء ينتظر من لا يحترم الكهنة - البراهمن. وأنت لن تعثر في الفيدات على تعاليم عن الروح التي تعيش بعيدة عن الجسد. ولم تظهر مثل هذه التعاليم إلا في عصر البراهمنية. وتحتوي التعاليم الدينية الفلسفية الهندية كلها تقريباً، على فكرة انتقال الروح، فكرة تكرار الولادات. ومعنى كلمة سانسارا (الولادة ثانية): ضلال، عبور، تعاقب. ويقوم جوهر نظرية تكرار الولادات، أي جوهر السانسارا في الآتي: مع موت الإنسان لا تموت روحه، إنما تنتقل، تنزح لتسكن كائناً آخر، أو جسماً مادياً ما. وقد يكون الكائن المعني إنساناً، أو حيواناً. وقد يكون الجسم المادي المعني أي موضوع كان. لكن نزوح الروح لا يحدث وفق رغبتها، بل وفق قوانين صارمة. وأهمها قانون الكارما. ومعنى كلمة كارما: عمل، سلوك، فعل. ونحن يمكننا أن نقول بشيء من التصرف، إن الكارما هي مصير الإنسان. فهي مقدرة مسبقاً لكل إنسان، «معطاة من فوق»، ولكن بما أن الإنسان يمتلك إرادة حرة، فإنه قادر على أن يجعل كارماه أفضل أو أسوأ، «يعسّرها» أو «ييسرها». ويستطيع الإنسان أن يحقق ذلك بأعماله، بسلوكه فقد قيل في الفيدات: «إذا كان الإنسان سكيراً، فسوف يتجسد في عثة، وإذا كان قاتلاً ففي كلب، وإذا كان لصاً ففي جرذ». أما إذا كان الإنسان قد عاش بضمير نقي، وسعى لبلوغ الكمال الأخلاقي، فإنه قد يولد في واحدة من ولاداته براهمناً. وفي الردح الفاصل بين حياتين، تعيش الروح حالة خاصة تسميها التعاليم البراهمنية قمراً.

لقد أضافت التعاليم الدينية الفلسفية التي عرفها العصر البراهمني، إضافات جوهرية إلى الدراسات الفيدية. وقد جمعت هذه على امتداد مئات السنين في مجموعات، أوبانيشادات. وتبرز بينها ست نظم، ست مدارس دينية فلسفية كلاسيكية، أي ست أوبانيشادات. وهي:

1- تعاليم عن وحدة اللا مشخّص (براهمان) والمشخّص (أتمان): فيدانتا، ومعناها الحرفي، هو ختام الفيدات.
2- التعاليم الداعية إلى الالتزام الصارم بالشعائر: الميمانسا. وهي شبيهة بالفيدانتا.

3- تعاليم عن مبدأي الكون: المبدأ المادي، والمبدأ الروحي. لقد رأوا أن المادة تنجب الروح، الروح الكوني، الذي يتألف من أرواح البشر. وحسب هذه التعاليم أن للعالم المادي أجزاء ثلاثة مكوّنة (غونات)، هي: الجوهر، والشغف، والظلام. وقد قامت الموضوعة الأساس لهذه التعاليم في أن الحياة معاناة. وعلّة هذه الأخيرة أن روح الإنسان أسيرة الأهواء والنوازع (من العالم المادي)، وهذا يعني أن التخلص من المعاناة مشروط بالانعتاق من أغلال العالم المادي. وتدعى هذه التعاليم: سانكهيا (التحويلات). وقد قامت هذه في صلب تعاليم بوذا.

4- تعاليم اليوغا (الاتحاد) التي حددت مهمتها في بلوغ الكمال، واتحاد الروح بالإله. ويمكن أن يتحقق هذا نفسه حسب هذه التعاليم، باعتزال العالم. ومن المعروف الآن أن نظام اليوغا بات شائعاً جداً في عالمنا المعاصر، لكن هذا لا ينسحب على التعاليم الفلسفية الدينية نفسها. فنظام اليوغا يتألف من طرائق خاصة تقود إلى تحقيق التركيز الذهني، والخروج إلى خارج العالم المحيط. إنها إيحاء ذاتي، وسكون تام في وضعيات جسدية بعينها، وحبس التنفس، ودوام الحفاظ في الذهن على صيغ مجردة («آوم» على سبيل المثال).

5- تعاليم شبيهة بتعاليم الفلسفة المادية، وتدعى فايشيشيكا. وتقدم هذه التعاليم نظرية لبناء الوجود كله من الذرات: جزيئات متناهية في الصغر وغير قابلة للانقسام.

6- تعاليم نيايا الشبيهة بالفايشيشيكا. لقد قامت هذه التعاليم التي تتعايش في الأوبانيشادات بسلام، قامت في أساس بناء نظم دينية فلسفية جديدة. ونحن أشرنا سابقاً إلى أن البوذية نبتت في تربة تعاليم السانكهيا، بينما خرجت الجاينية من تعاليم اليوغا.

ومن المعروف أن المسيحية عملت جاهدة على اضطهاد الهرطقات، وسعت سعياً حثيثاً متواصلاً لكي تبقى على قيد الحياة صامدة، ومحافظة على سلطتها. لكن الأمور سارت في الهند بطريق مغايرة. فالديانة الفيدية البراهمنية لم تضطهد التيارات الجديدة في أي يوم من الأيام، مع أن هذه الأخيرة كانت تنبت كالفطور. لقد كان كل معلم ينشئ تعاليمه، وطائفته، ويحدد الآلهة الذين يجب تبجيلهم أولاً. ولم يخطر لأحد أن يحرقه حياً بسبب ذلك. وقد أظهر أكثر من ألف عام من تاريخ الهند، أن طريق الحرية الدينية هذه، هي الطريق الأصح. فالبراهمنية لم تمت بعد أن جمّت في ذاتها كثرة من التعاليم، والعبادات، والطقوس. بل إنها لم تسع يوماً إلى العالمية. ولم تأخذ البراهمنية إليها التعاليم الفيدية فقط، بل أخذت أيضاً تلك التي لا تنتمي إلى التربة الآرية. وقد تجمع هذا كله بطريقة طبيعية وبات يدعى هندوسية. ولذلك يمكننا أن نقول: إن الهندوسية هي اتحاد كثرة من الديانات والعبادات التي يجمعها

الاعتـراف بالفيـدات، تعـاليم الكارمـا، وتعـدد الـولادات (السانسـارا، نـزوح الأرواح)، والفارنات.

ينابيع البوذية

تعد البوذية أول ديانة عالمية عرفها التاريخ البشري. فقد ظهرت قبل المسيح بستة قرون، وبعد ستة قرون من المسيح، ظهر الإسلام. كما تعد البوذية الديانة الأولى من حيث عدد الأتباع؛ إذ يبلغ عدد هؤلاء اليوم نحو الأربعمئة مليون مؤمن[1]، ولا يزال هذا العدد في تزايد متسارع.

ولكن على الرغم من أن البوذية ديانة عالمية، إلا أن فهم جوهرها يشترط الانطلاق من الخصوصية القومية للهند زمنئذٍ، وسمات تطورها. فالآريون استولوا على الهند في الأزمنة القديمة. ودعوا أنفسهم هندوساً («أسمر»، «أزرق»). أما السكان المحليون السود، فقد استبعدهم الآريون (النبلاء)، الذين تبين أنهم حاذقون جداً في إخضاع السكان المحليين لسلطتهم، والمحافظة على نقاء دمهم.

والمعروف في التاريخ كقاعدة، أن الغزاة يذوبون رويداً رويداً في الشعب الذي يقهرونه، ثمَّ يقتبسون في آخر المطاف ثقافته، ولغته، وديانته، و... أما الآريون فقد أقاموا بينهم وبين سكان الهند الأصليين جداراً عازلاً، وحرّم على هؤلاء الأخيرين حتى مجرد ملامسة سادتهم. ودُعي المهزومون حثالة. وحُرموا من حق ملكية أي ملكية كانت؛ أي أنهم كانوا عملياً مجرد عبيد وحسب.

ولكن عملية الانقسام هذه لم تأخذ صيغتها النهائية مباشرة. فبعد بعض الوقت تبلورت بوضوح أربع كاستات في المجتمع الهندوسي. وكان العبيد: مليتشا (الحثالة)، هم الكاستا الأكثر عدداً والأدنى مرتبة. إنهم كاستا السودرا. وقد اقتصرت رسالة هذه الكاستا في الحياة، على خدمة الكاستات العليا من غير تذمر أو تردد. وكان الالتزام بهذا المبدأ يتحقق عبر أساليب عقاب منتظمة. وكانت كتب الهندوس المقدسة قد مجدت العقاب:

«إن العقاب سلطان جبار، وحاكم ماهر يستخدم القوانين بحكمة. فيه الضمانة الأفضل لكي تؤدي الكاستات الأربع واجباتها. فالعقاب هو الذي يحكم

١- لكن عدد المسلمين تجاوز اليوم المليار مؤمن!! - المترجم.

الجنس البشري ويحميه، إنه يصحوا عندما ينام جميعهم، إن العقاب هو العدل عينه».

«ينزل العقاب بتروٍّ، وهو للمناسبة يحمل السعادة للناس، لكنه إذا أنزل من غير ترو، فإنه يفسد كل شيء».

«لو لم يؤد العقاب غرضه، لحلت البلبلة بالعالم، وتهاوت الحواجز كلها (بين الكاستات)».

لقد كانت العقوبات في المجتمع الهندوسي فعالة جداً:

الإعدام، أو بتر عضو ما من أعضاء الجسد، أو الطرد، أو مصادرة الأملاك، وما إلى ذلك.

وغني عن البيان أن هذا الضرب الأخير من ضروب العقاب، لم يطبق بحق السودرا، لأنه لم يكن لهؤلاء أي ملكية كانت. لكنه استخدم ضد كاستا الغايتي: ضد الحرفيين، والتجار، والفلاحين. وكان هؤلاء أعلى من السودرا بدرجة واحدة. لقد حرموا بدورهم، الحقوق كلها. فكان عليهم حراثة الأرض، ورعاية القطعان، أو تحصيل رزقهم كل على طريقته، وخلافاً للسودرا، فرض على هؤلاء أن يقدموا القرابين، ويظهروا الإحسان، ويقرؤوا الكتب المقدسة.

وعلى درجة واحدة أعلى من هؤلاء، كانت تقف كاستا الكشاترى (الجنود). لقد ألقيت على عاتق هؤلاء مهمة حماية المجتمع. وحسب شريعة مانو، أن السمات الأخلاقية التي تولد مع هؤلاء، هي المجد، والإقدام، وسعة الصدر، والخلق النبيل. وكانت تقف فوق كاستا المقاتلين، كاستا البراهمن - الكهنة، أو الأتقياء. وكانت هذه الكاستا هي الكاستا الأعلى. ومن مهماتها نشر التعاليم المقدسة. وحسب شريعة مانو، أن السمات الأخلاقية المولودة مع هؤلاء، هي الاعتدال، والعصمة، والصبر، والحكمة. وكان التزاوج بين الكاستات محرماً تحريماً صارماً. وإذا ما حدث إنجاب أطفال من زيجات مختلفة، فإن هؤلاء يعدون أدنى مستوى من البهائم. وقد دُعي هؤلاء: تشاندلي.

لقد كانت سيادة البراهمن على المجتمع تامة، مع أن السلطة كانت رسمياً بيد الملك. وقد اعتقدوا أن هذا الأخير خلقه كائن أعلى صنعه من أجزاء الآلهة: إيندرا، وأنيلا، وسوريا، وياما، وأغني، وغيرهم. ولذلك كان الحديث عن الملك باستهتار محرماً. ومع هذا كله نجح البراهمن في وضع الملك داخل أطر ضيقة. فعلى الرغم من منشئه الإلهي، إلا أنه كان ينبغي على الملك أن يجلّ البراهمن ويطلعهم على أعماله أولاً بأول. كما كان عليه أن يؤمّن لهم القوت، ويمنحهم جزءاً من العطاءات كلها. وإذا ما حصل وحاز الملك كنزاً ما، فقد كان عليه أن يمنح نصفه للبراهمن. أما إذا ما حاز البراهمن على مثل هذا الكنز فلم يكونوا ملزمين بتقاسمه مع الملك. لقد حرص البراهمن على أملاكهم

حرصاً شديداً. وكانت التركات تبقى دوماً داخل كاستتهم. زد إلى هذا أنه في حال عدم وجود ورثة في الكاستات الأخرى، فإن تركة المتوفى تؤول إلى البراهمن. ومهما كانت الضرورة ملحة، فإنه لم يكن من حق الملك أن يفرض أي ضرائب على البراهمن. قصارى القول: إن سلطة الملك كانت تنسحب على الكاستات الدنيا فقط، وكان يجب أن تستخدم تلك السلطة لإرغام الكاستات المعنية على تأدية التزاماتها. ويؤكد المؤرخون أن «اللامساواة لم تأخذ مثل ذلك الطابع الحاد الصارم المنظم في أي مكان آخر، كما كانت عليه الحال عند الهندوس».

أما شريعة مانو فهي شيء ما يشبه شريعة موسى عند اليهود. فقد وصفت المصادر القديمة: «الفيدات»، و «شريعة مانو»، عصر غزوات الآريين لطبيعة الهند البكر، وسكانها الأصليين، وصفاً جيداً. وهذه المصادر مثلها مثل أسفار التوراة، صُنّفت على مدى قرون، وعلى أيدي أجيال كثيرة: «فالفيدات» وصفت الطور المبكر من حياة الآريين على ضفة نهر الإيند (السند)، قبل أن ينتشروا جنوباً وشرقاً. ولم تكن الكاستات والفئات الاجتماعية الأخرى قد ظهرت بعد. لقد تميز نمط عيش الآريين في هذا الطور ببساطة أخلاقيات المجتمع الأبوي. ثمَّ تلا هذا العصر (وهو عصر الفيدات)، عصر مديد آخر، هو عصر انتشار الآريين في شتى أرجاء الهند، وانقسام مجتمعهم إلى كاستات، وتنظيم حياة الهندوس الدينية، والسياسية، والاجتماعية تنظيماً صارماً. وقد تضمنت «شريعة مانو» هذه الفروض كلها. ومثلها مثل التلمود، ضبطت هذه الشرائع كل جوانب حياة الهندوس الروحية والفيزيائية. فأخذت بالحسبان المأكل، والملبس، وحتى الفراش (طريقة تحضير الفراش). ولكن الفرائض اختلفت بين كاستا وأخرى. وكان انتهاك أي من تلك الوصايا محرماً تحريماً صارماً، فما عدا العقاب الزمني كان ينتظر المنتهك عقاب «غير زمني». فقد تكون ولادته التالية في كاستا أدنى مرتبة، أو قد يولد حيواناً، أو نباتاً، أو... وعلى وجه العموم كانت فكرة نزوح الروح معروفة لدى الشعوب كلها في الطور المبكر من تاريخها. أما في الهند فإن هذه الفكرة لم تستحوذ على الناس وحسب، إنما كبلتهم بخوف مريع من إمكانية استمرار مرارة العيش في الولادات المقبلة. وباتت غاية أفراد المجتمع كلهم، هي العمل على مغادرة هذا العالم وضمان عدم الرجوع إليه أبداً.

في العصر الفيدي آمن الهندوس بكثرة من الآلهة. لكن الكهنة البراهمن صاغوا بعد ذلك رؤية أكثر عمقاً. فقد تخيلوا الإله كالكون، مبدأه الروحي: جوهراً مشتركاً لظاهرات الطبيعة. وتوصلوا إلى فكرة لا نهائية الإله - الكون، وتصوروا الإله نفسه روحاً كونياً (ما ندعوه الآن بالعقل الكوني، أو حقل الإعلام الكوني). فالروح الكوني هو بالذات مصدر كل ما هو موجود في

الكون، عنه يصدر كل شيء، وإليه يرجع كل شيء. وحسب وجهة نظرهم، أن روح الإنسان جزء من الروح الكوني. لقد بحث الكهنة عن طرائق لقطع سلسلة البعث، وجعل الإنسان سعيداً، وتوحيد روحه مع الروح الكوني. واعتقدوا أنه يمكن أن يدرك هذا إما بقتل الجسد بشتى ضروب التعذيب الفيزيائي، أو بالتأمل.

لقد كانت هذه المسألة تشغل فريقاً مهماً من المجتمع (بمن في ذلك الكاستات الدنيا). وهكذا جاء إلى المجتمع الهندي القديم إله واحد لكي يحل بدلاً من كثرة من الآلهة. ولم يكن للإله الجديد اسم خاص به، وشيئاً فشيئاً أخذ يتحرر من الإهاب الشخصي. فالريغفيدا على سبيل المثال، تمجد إلهاً واحداً يدعى «رب المخلوقات» أو «خالق كل شيء». ثمَّ دعي فيما بعد: «ذاتي»، «أنا»، أو براهمان. وكانت كلمة براهمان قبلئذٍ تعويذة فعالة زعموا أن لها قدرة على إخضاع الآلهة لسلطانها. لكنهم استخدموه بعد ذلك لتسمية الماهية التي تمكث في السكون الأزلي. وهذا عملياً، هو حقل المعطيات الكوني. وهذه الماهية (الحقل) موجودة في كل مكان (الإله التوراتي الكلي الوجود)، يصدر كل شيء عنها، ويرجع كل شيء إليها. وتعد هذه الماهية - الحقل، العلة الأولى لكل ما هو موجود. وهي التي تضمن استمرار التحولات الجارية كلها. ومن البديهي أن تكون هي مصدر الحياة أيضاً، بما فيها الحياة العاقلة. لقد قالت الكتب القديمة: إن العالم الواقعي لا يمثل سوى تحول الماهية العليا. وهو متعلق بها كلياً، وليس له وجود مستقل عنها. وينبغي على الإنسان الذي أدرك هذا واعترف به، أن يتحرر من خوفه أمام البعث - الألم اللامتناهي، لأنه يعي أنه جزئية من هذا الخالق الكلي، ولا يمكن أن يبقى متروكاً للآلام الأبدية. وقد سعى كثيرون لتحقيق هذه الأفكار، وصاروا نسّاكاً، وفي عصر بوذا تطورت حركة التنسك في الهند تطوراً كبيراً. ووقف المجتمع كله متعاطفاً مع النساك، فقدم لهم القوت، والملابس البسيطة. وكان يمكن أن يدعى الناسك لتناول «وجبة غداء» إلى مائدة شخصية نبيلة، أو حتى إلى مائدة الملك نفسه. وعلاوة إلى هذا كان الملوك أنفسهم يتنسكون عندما يبلغون سن الشيخوخة: يتركون ملكهم ويمارسون التأمل في الطبيعة. ومن المعروف أن الأمير بوذا، ولي عهد والده الملك، قد ترك القصر وصار ناسكاً. ومع أنها حالة نادرة، لكنها كانت حالة طبيعية بالنسبة للهند تلك الأزمنة.

لقد كانت صورة الحياة التي يعيشها الناسك، مرتبطة بالأيديولوجيا التي يعتنقها. فرأى بعضهم أن الأمر الأساس يكمن في قهر الذات وقتل الجسد. وقد لجأ هؤلاء إلى طرائق مثل، الجلوس وأيديهم مرفوعة بين أربع نيران متوهجة. كما كانوا يجلسون أياماً تحت أشعة الشمس الاستوائية الحارقة، وتحت وابل المطر، وفي الليالي القارسة. كما كانوا يصومون طويلاً، وكان كثير منهم يقتات بالجذور، والماء، وأوراق النباتات و... وقد

دعي هؤلاء النساك بالكادحين. وثمَّة من الناسكين من مارس التأمل. وبحث هؤلاء عن السكون في بطالة الروح والجسد. وفضّل بعض النساك القهر الفيزيائي والتأمل. كما كان هناك نساك يصح أن ندعوهم بالجوابين، لأن هؤلاء كانوا يجوبون القرى، ويجمعون قوتهم من ممارسة مختلف ألوان الألعاب البهلوانية والتنجيم.

وعلى وجه العموم، بما أن الموقف العام من النساك كان طيباً، فإن هؤلاء لم يواجهوا أي صعوبات في تحصيل قوتهم. فقد كانوا يتجمعون في مجموعات كبيرة (أكثر من 500 نفر)، وينزلون في ضواحي المدن، فيحمل السكان القوت إليهم.

وما تجدر الإشارة إليه، أنه كان بين النساك مفكرون حقيقيون أحياناً (قلة نادرة). وكان يتجمع حول هؤلاء مريدوهم: تلاميذهم. وكان مثل هذه المدارس كثيراً: ليس عشرات، بل مئات. وقد كانت تدور بينها مساجلات تتطور أحياناً إلى عراك وأعمال شغب. ونحن سوف نحدد بين تلك المدارس، المدارس الرئيسة منها، تلك التي ترتبط بالبوذية.

لقد رفضت التعاليم التي طوّرها كابيلا وباتانجالي، الشعائر الدينية الظاهرية التي كان البراهمن مغرمين بها، كما رفضت تقديم الذبائح والقرابين. ونحن نكاد نقول:

إن هذين المعلمين فتحا عهداً جديداً حل بدلاً من شريعة مانو، ووجه كابيلا وباتانجالي تعاليمهما إلى الكل، بصرف النظر عن الانتماء الكاستي. وفي تلك الظروف كان هناك كثير من الثورية في طرح فكرة أن كل إنسان، بصرف النظر عن انتمائه الكاستي، يستطيع أن يحرر روحه من كثرة النزوح إلى كيانات أخرى. فحسب تعاليمهما أن روح الإنسان أداة بيد الكائن الأعلى. وهي كانت موجودة بذاتها. وإذا ما أدرك الإنسان (روحه) هذا، فإن روحه تستطيع أن تقف لا مبالية تجاه ظاهرات الحياة. وبعد موت الجسد، تنعتق الروح من كل الروابط المادية، وتنتقل إلى الحالة البدئية للروح النقية، إنها ترجع إلى الروح الكوني. ويستنتج مما تقدم عرضه، أن روح الإنسان قادرة على تحقيق انعتاقها عن طريق التأمل الذاتي. ومعنى هذا، أنه ليس هناك من ضرورة لقتل الجسد. أمّا فيما يتعلق بالتأمل الذاتي، فإن الحديث يجري عن حالة الوعي المتبدلة، عندما تتحد جزئياً مع الوعي الباطني، ومع حقل المعلومات الكوني.

لقد كانت الهند تتوزع في زمن بوذا على عدد من الدول البارزة. ففي الشمال الشرقي في موطن بوذا، كانت تقوم أربع ممالك، وعدد من الجمهوريات الأرستقراطية. كما كان هناك كثير من الإمارات الصغيرة التي كانت تدعى ممالك. وبمثل هذه الممالك وحكامها ارتبطت إلى حد كبير، حياة بوذا وأعماله. وفي تلك الأثناء كان في الهند كثير من المدن الكبيرة. وكانت الحياة التجارية

والحرفية مزدهرة فيها. وقد وصف المؤرخون المدن والحياة الدينية في الهند زمن بوذا، على الوجه الآتي:

«ثلاثة شوارع عريضة نظيفة دائماً، مستقيمة على الخيط وممتدة حتى النهاية. وكانت المنازل مبنية واحدها إلى جانب الآخر، ومحاطة بأفنية مضيئة، وأنساق من الأعمدة الطويلة، والأرصفة البديعة. وكانت تعلو فوق منازل المواطنين، قبب القصور كأنها قمم جبال. وكانت الساحات، والحدائق، والبساتين تتوزع في مختلف أرجاء المدينة. وتحيط بهذه الأخيرة من الجهات كلها، سواتر عالية وخنادق عميقة. وبنيت في أسوارها المرصوفة بحجارة ملوّنة كرقعة الشطرنج، بوابات جبارة لها أرتجة قوية. ويقف على الأسوار سهّامون حرّاس، يحمل سلاحهم الموت الزؤام. لقد كانت شوارع المدينة تضج بالحركة: يغدو ويروح فيها كثير من الوافدين الأجانب، وسفراء الدول الأجنبية والتجار مع فيلتهم، وخيلهم وأحمالهم. وكانت تتهادى من المنازل أصوات الطمبورات، والقيثارات، والغناء الجميل، لقد كان الجو مليئاً بالروائح العطرية، وعبير الزهور، وتقدمات القرابين. وفي المساءات كانت الحدائق والمتنزهات تعج بحشود المتنزهين، ويتجمع الفتيان والفتيات في الأروقة يرقصون ويمرحون».

حيــاة بــوذا

ولد بوذا في العام 623ق.م في أسرة ملكية. وكانت أسرته، أسرة الساكيين الأرستقراطية قد هاجرت في الأزمنة القديمة إلى سفوح الهيملايا النيبالية آتية من وادي نهر السند. وقد دعيت المملكة بمملكة كابيلافاستو. وكان المكان الذي قامت فيه مكاناً ساحراً وغنياً. فقد كانت تروي السهل الخصيب كثرة لا عد لها من الجداول والينابيع، التي كانت تنحدر من أعالي الهيملايا. وبفضل ازدهار زراعة الرز أولاً، وقبل كل شيء آخر، ازدهرت المملكة. لقد رقشت حقول الرز الصفراء المكان كله، منتشرة بين غابات البلسم الساحرة. وما ساعد على ازدهار المملكة أيضاً، أنها كانت نقطة عبور القوافل التجارية.

لقد كان ملوك تلك المملكة الصغيرة يتميزون بالحكمة والعدل. وكانت سلالة هؤلاء الملوك تنتمي إلى ابن مانو، المشرّع الشهير الذي وضع «شرائع مانو» المعروفة. ولم يكن لمثل هذا النسب ألا ينعكس على الوعي الذاتي للسلالة: لقد أبرز المؤرخون كبرياءهم واعتدادهم بأنفسهم، وثمَّة من المؤرخين من عدهم ملوكاً متغطرسين، وهذا ما دفعوا ثمنه باهظاً جداً.

لقد عمل بوذا في حدود عدد من الممالك الكبيرة أو الصغيرة. وارتبطت حياته ومصير تعاليمه ارتباطاً كبيراً بملوك تلك الممالك. فمن أنصار تعاليم بوذا الغيورين، الملك بيمبيسارا، ملك ماغادها. وإلى شمال - غربي ماغادها كانت تقع مملكة كوشالا، التي كانت مدينة شرافاستي هي المدينة الرئيسة فيها. وفي تلك الأزمنة، كان الملك برسيناجيتا هو ملك هذه المملكة، وكان هذا من أتباع بوذا المخلصين. ومن الجنوب كانت تحاذي مملكة كوشالا مملكة أخرى، هي مملكة أوجايني. وهنا في هذه المدينة ولد الشاعر العظيم كالياداسا. وعلاوة على الممالك كان ثمَّة عدد من الجمهوريات. وقد اجتمعت ثمان منها في كونفدرالية فريجي. وكانت تقوم بجوار هذه الكونفدرالية سلالة ساكي التابعة لملك كوشالا تبعية

اسمية، لكنها عملياً، كانت كياناً سياسياً مستقلاً. وكانت سلالة الساكيين تفخر أيضاً، بأن القديس الحكيم هاوتاما كان أحد أسلافها. ولذلك كان اللقب الأسري للسلالة، هو هاوتاما، ومعناه، الذي ينتمي إلى هاوتاما. وعليه فقد دعي بوذا في حياته باسم هاوتاما. وبعد وفاته فقط باتوا يدعونه ساكي الحكيم، الذي من سلالة ساكي. أما كلمة بوذا نفسها، فإنها تعني «المتنوّر».

وفي اليوم السابع بعد ولادة بوذا، توفيت والدته مايا («طيف»، «خيال»). وقد أبرزت الحوليات، الجمال الخارق الذي كانت تتمتع به مايا، والعقل الطبيعي، والمزايا الأخلاقية التي كانت تملكها. أما والد بوذا، الملك سودهودان، فإن الحوليات تصفه بأنه كان «ملك القانون، حكم المملكة وفق القانون. ولم يكن في بلاد الساكيين ملك واحد أكثر وقاراً وهيبة منه».

ومثله مثل المسيح ومحمد، فقد تنبؤوا لبوذا بمستقبل عظيم، وكان أسيتا الناسك قد بنى نبوءته تلك على أساس اثنتين وثلاثين علامة رئيسة، وثمانين علامة ثانوية رآها على جسد المولود. وكانت تلك العلامات تدل على أن الشخص المعني مختار من الإله. ودعي الطفل المولود باسم سيرفاتا سيدارتها، أو باختصار: سيدارتها، ومعناه: «الكامل في الأشياء كلها». وتفيد الحوليات بأن الولد قد ورث عن أمه جمالها الخارق، ونشأ طيباً، وديعاً، وحاضر البديهة. ربته خالته شقيقة والدته مهابراجاباتي، التي غدت بعد ذلك زوجة والده، ووالدة أخيه وأخته غير الشقيقين. لقد نشأ ولي العهد مترفاً راضياً كأي ولي عهد آخر. ولما بلغ السادسة عشرة من عمره زوّجوه. وأنجب ابنه راهولا. ثمَّ سارت حياته هكذا إلى أن بلغ التاسعة والعشرين.

وفي التاسعة والعشرين دعي بوذا لتأدية رسالته، ومثلما دعي المسيح في الثلاثين، ومحمد في الثانية والأربعين، ومثلهم دعي موسى وإبراهيم. ولا يزال المؤرخون والفلاسفة يحللون الأسباب، التي دفعت بوذا لتفضيل حياة التنسك والزهد على حياة الملوك بجواريها، وراقصاتها، ومغنياتها و... وقد تحدثوا في غضون ذلك عن الاكتفاء وما شابه. بيد أن حقيقة الأمر، هي أنه لا طائل من تلك النقاشات كلها.

فقد كان بوذا شخصية باسيونارية (روحانية) مختارة مع الرسالة التي أُلقيت على كاهله. وقد بدأ يؤديها لأنه لم يكن بوسعه ألا يفعل ذلك. فلم يكن أمامه خيار: يؤدي أو لا يؤدي. لقد ولد لكي يؤدي رسالته.

ليلاً ترك بوذا القصر، ومعه خادمه تشانا وجواده. ولما بلغ نهر آنوما في بلاد المالاي، عند مدينة كومنيغارا، رد خادمه ومعه الجواد والأموال إلى والده،

وبقي وحيداً. ثمَّ بادل فقيراً عابر سبيل، ثيابه بثيابه الملكية، وقص شعره الطويل. ولم يبق لنفسه سوى معطفه الأصفر. لقد تحول بوذا إلى زاهد.

ووصفت النصوص القديمة هجرة بوذا للقصر الملكي كما يلي:

«لقد صار الزاهد هاوتاما راهباً، ترك نسباً سامياً.
صار الزاهد هاوتاما راهباً وترك كثيراً من الذهب نقوداً وسبائك مخزونة في السراديب والمخادع. ولا يزال الزاهد هاوتاما شاباً فتياً أسود الشعر، ففي شبابه السعيد وسنّه المبكرة، هجر وطنه إلى المجهول.
وعلى الضد من إرادة أهله، وعلى الرغم من الدموع التي ذرفوها، إلا أن الزاهد هاوتاما قص شعر رأسه، وحلق لحيته، وارتدى الملابس الصفراء، ومضى من وطنه إلى اللاوطن».

وهناك نص آخر يصف لنا كيف يشرح بوذا بنفسه للرهبان ما يحصل. فهو يقول لهم:

«وجاءتني أيها الرهبان، أنا الذي كنت أعيش حياة منعمة، جاءتني الفكرة التالية: إنسان عادي غير عارف، خاضع لتقدم السن، عندما يرى بأم عينه، هو الذي لا يزال بعيداً عن سن الشيخوخة، شيخاً هرماً، فإن ذلك يجعله يحس بالقلق والحيرة، ويختلط عليه الأمر، وينفر من فكرة تطبيق ما يراه على نفسه، فأنا بدوري خاضع لسلطة السن، لكني لست شيخاً بعد، فهل لي أنا الخاضع لسلطة السن والذي لم يشخ بعد، إذا رأى شيخاً هرماً ألا يشعر بعدم الانسجام مع نفسه، وألا يحس بالحيرة والسأم والنفور؟ لقد كان الأمر محزناً بالنسبة لي. ولكني هاأنذا أيها الرهبان، عندما وازنت الأمر اندثر فيَّ الإحساس بفرح الشباب».

لقد مكث بوذا عند مدينة كوسيناغارا سبعة أيام، توجه بعدها إلى مدينة راجاغريها لكي يتعلم الحكمة لدى النساك المقيمين غير بعيد عنها. وهناك بدأ بوذا طريق النساك الكادحين من أدنى مستوياته. وباتوا يدعونه هناك بالزاهد هاوتاما. وأخذ مثله مثل جميعهم هناك، يخضع جسده لآلام ممضّة كي يقتله. لكنه أدرك مع الوقت أن ذلك لن يقرّبه إلى الحقيقة. فانتقل إلى نساك آخرين: إلى المتأملين، وتعرّف عندهم إلى فلسفة سانكهيا. وكان أهم فيلسوفين في طائفة النساك هذه، هما البراهمنان آلارا، وأوداها. وقد رأى هذان مهمتهما الرئيسة في تحقيق السيطرة على الانفعالات، وبلوغ حالة السكون الدائم، واجتاز هاوتاما هنا فصلاً تعليمياً كاملاً. وهكذا روّض روحه رويداً رويداً، وحررها من القلق والأفكار. لقد تعلم بوذا أن يحقق السكون الروحي الرصين، فاقترحوا عليه أن يرأس المدرسة، لكنه رفض وغادر المكان. وكان معلمو هاوتاما ذوي هيبة ووقار وسمعة طيبة. كما كانوا من أتباع اليوغا. وهذه فلسفة علمها باتانجالي. واليوغا هي صيغة مؤلهة تطورت من فلسفة سانكهيا الإلحادية التي أسسها كابيلا. وسوف يأخذ بوذا كثيراً من تعاليم هاتين الفلسفتين فيما بعد. ويقوم الفرق بين الفلسفتين في الآتي: لقد أعطت اليوغا الأفضلية لتقنية التأمل. فالوسائل الخارجية المساعدة (التنسك الصارم، و...) كانت هي الأهم بالنسبة إليها. أما تعاليم السانكهيا، فقد كانت تعاليم نظرية أساساً. وقد صاغت نظرية تجريدية عن المعرفة الصحيحة.

لقد وصل هاوتاما إلى أورفيلا الواقعة إلى الجنوب من باتنا. وهنا في الغابات الطرفية أخضع هاوتاما نفسه لآلام ممضّة على أمل أن يبلغ الصحوة، صحوة العقل. إلا أن محاولته لم تعط ثمارها، فتابع طريقه. لقد جرّب هاوتاما وسائل تحقيق الصحوة كلها، وتجاوز لحظة «الصمت» بين الوعي والوعي الباطني: جاع، وحبس تنفسه، وركّز تفكيره في نقطة واحدة، ولكن عبثاً كان يحاول. ومرة أوصل نفسه إلى حالة ظن معها تلاميذه الخمسة، الذين كانوا يراقبونه عن بعد، أنه مات. ولما لم يحقق النتيجة المرجوّة، عزف هاوتاما عن هذه الوسائل وخلص إلى نتيجة مؤداها أن تعذيب النفس والتوبة لا يفضيان إلى الحقيقة. وانصرمت سبع سنوات أخرى بحثاً عن الطريق الصحيحة. حتى جاءته الصحوة المنتظرة ليلاً على حين غرة، بينما كان جالساً تحت شجرة تين. ففي تلك الليلة تحوّل الأمير سيدهارتا إلى «يقظ»، «متنور»، إلى بوذا. ومنذ تلك الليلة بدأ تاريخ البوذية.

لقد ساق لنا أحد أقدم الآثار البوذية: الدهاماباداً، كلمات بوذا الآتية التي قالها حينما بلغ الصحوة: «لقد أكملت دورة الولادات الكثيرة من غير أن أتوقف لحظة واحدة، وكنت في أثناء ذلك أبحث عن باني البيت (يقصد بهذا علّة تكرار الولادات). بئس المعاودة الأبدية للولادات. يا باني البيت، أنت الآن مكشوف، ولن تبني بيوتاً بعد اليوم. عتباتك تكسرت، وسقف بيتك وقع. إن قلبي الذي بقي حراً أطفأ الرغبات كلها». ويتضح مما قيل هنا، أين يرى بوذا النجاح المهم؟ في التحرر من الرغبات، ومعنى هذا، التحرر من تكرار الولادات أيضاً. أما شجرة التين تلك فقد باتت ذات شهرة وسعة، وصارت إلى شجرة الصحوة. وكان ثمَّة شجرة تين فعلاً إلى جانب بوذا غاي، وقد بقيت قائمة حتى حطمتها العاصفة في العام 1876م. وغني عن البيان، أن شجرة كانت تحل محل الأخرى على مدة آلاف السنين. وقد زعموا أنهم حملوا فرعاً منها في أواسط القرن الثالث قبل الميلاد، إلى جزيرة سيلان، وزرعوه على مقربة من أنورادهابورا. ويؤكدون أن الشجرة التي نمت هناك لا تزال قائمة حتى يومنا هذا.

وثمَّة سرد مفصل لسيرة حياة بوذا بعد الصحوة، جاء في أحد مؤلفات فينايابيتاكا، وهو مؤلّفه: ماهاواجي. وحسب هذا النص، أن بوذا أمضى بعد أن جاءته الصحوة، سبعة أيام جالساً تحت شجرة التين وساقاه تحته، «يستمتع بغبطة الخلاص». وبعد أن انتهت الأيام السبعة، استعاد بينه وبين نفسه مرة أخرى، كل ما وضعه عن العلاقات بين الأسباب والنتائج ذات الصلة بالمعاناة في هذا العالم. وبعد ذلك انتقل بوذا إلى ظل شجرة أخرى، هي «شجرة راعي الماعز». فأمضى تحتها سبعة أيام أخرى متفكراً. ومثلما جَرّب الشيطان المسيح، جُرّب بوذا أيضاً. وقد رفض هذا بدوره عروض الشيطان، مؤكداً أن هذا الأخير يهاجم الإنسان بتسعة «جحافل»، هي: الشهوانية، والسخط، والجوع، والعطش، والطمع، والكسل، والجبن، والشك، والرياء، والغباء، والبحث عن المجد والغطرسة. وقال بوذا للشيطان: «إن جحافلك التي لا يستطيع البشر والآلهة أن ينتصروا عليها، سوف أبدّدها أنا بقوة العقل، كما تتحطم الأواني الفخارية. سألجم فكري، وأرسخ قوة روحي، وأمضي من مملكة إلى مملكة لأكسب تلاميذ». فردّ الشيطان على ذلك قائلاً: «لقد تعقبت المتسامي سبع سنوات، خطوة خطوة، ولم أجد في اليقظ المتنور عيباً واحداً. وكما الغراب الذي يدور عبثاً حول الصخرة، نترك نحن هاوتاما». وهكذا ترك الشيطان بوذا وشأنه.

ثمَّ بدأ بوذا يبشر بتعاليمه، فمضى إلى ضواحي بيناريس، حيث النساك يقيمون في المتنزه. وهناك التقى النساك الخمسة الذين تبعوه، وكان هؤلاء ينتظرون صحوته لكي يكونوا تلاميذه. وهنا في متنزه رشيباتان استمعوا إلى بوذا من غير حماس في بادئ الأمر، لكنهم ما لبثوا أن أخذوا يدركون أهمية ما كان يقوله. وكانت عظة بوذا الأولى، العظة البينارية، ذات أهمية فائقة بالنسبة للبوذية

كلها. فبها «دفع بوذا عجلة تعاليمه إلى الحركة لأول مرة، ولتلك الموعظة قيمة عالية عند البوذيين.

وها نحن نسوق ترجمتها هنا كاملة:

«هناك شططان أيها الرهبان، لا ينبغي أن يأتيهما ذلك الذي اعتزل الحياة الدنيا. فما هما هذان الشططان؟ الأول، هو أن تترك نفسك للأهواء، إنها وضيعة مبتذلة، دنيئة وعديمة الجدوى. والثاني، هو أن تعذب ذاتك، إنه ممضّ، وضيع، وعبثيّ. فلا تقعوا في هذين الشططين أيها الرهبان، فالكامل وجد طريقاً وسطاً يفتح العينين، ويفتح العقل، ويقود إلى السكينة، والمعرفة، والصحوة، ويؤدي إلى النيرفانا. ولكن ما هو هذا الطريق الوسط الذي اكتشفه الكامل أيها الرهبان، الطريق الذي يفتح العينين، والنيرفانا؟ إنه طريق نبيل ذو ثمانية أطراف، هي الإيمان الحق، والعزيمة الصادقة، والكلمة الصادقة، والعمل الصالح، والحياة الصالحة، والسعي الصادق، والفكر الصادق، والاستغراق الذاتي القويم. ذلكم هو الطريق الوسط الذي وجده الكامل أيها الرهبان، الطريق الذي يفتح العينين، والعقل، ويقود إلى السكينة، والمعرفة، والصحوة، والنيرفانا. هذه هي أيها الرهبان الحقيقة النبيلة عن الآلام. فالميلاد آلام، والشيخوخة معاناة، والمرض عناء، والفشل في بلوغ المأرب معاناة؛ وقصارى القول: إن العناصر الخمسة التي تثير التمسك بالوجود، هي جوهر المعاناة. تلك أيها الرهبان، هي الحقيقة النبيلة عن نشوء المعاناة، إنها ذلك التعطش (للحياة) الذي يقود إلى البعث، ويترافق بالفرح والتوق، ويعثر على السعادة هنا وهناك كتوق الشهوة، وتوق الحياة، وتوق الموت. وهاكم أيها الرهبان الحقيقة النبيلة عن هزيمة المعاناة: إنها التحرر التام من هذا التوق، وسحقه، ونبذه، وتركه، وطرده. وهاكم أيها الرهبان الحقيقة النبيلة عن الطريق الذي يقود إلى قطع دابر المعاناة: إنه الطريق النبيل ذو الأطراف الثمانية: الإيمان الحق، والعزيمة الصادقة، والكلمة الصادقة، والعمل الصالح، والحياة الصالحة، والسعي الذاتي الصادق، والفكر الصادق، والاستغراق الذاتي القويم. هذه هي الحقيقة النبيلة عن المعاناة، هكذا أيها الرهبان، انفتحت عينيّ على هذه المفاهيم، التي لم يرها أحد من قبل، هكذا انفتح عقلي، وفهمي، ومعرفتي، وأفقي. إن هذه الحقيقة النبيلة عن المعاناة، يجب فهمها هكذا أيها الرهبان. وقبل أن أتبين بجلاء، المعرفة الحقة ذات الأبعاد الثلاثة، والأحد عشر طرفاً، وقبل أن أفهم الحقائق النبيلة الأربع، لم أع أيها الرهبان أنني بلغت أسمى درجات كمال المعرفة في عالم الإلهين مارا وبراهما، خلافاً لكل الكائنات الأخرى، بمن في ذلك النساك والبراهمن، والآلهة، والبشر. ومنذ أن أوضحت لنفسي بجلاء تام، المعرفة الكاملة والفهم التام لهذه الحقائق الأربع النبيلة، منذئذٍ وأنا أعرف أيها الرهبان، أنني بلغت أسمى درجات كمال المعرفة: في عالم الإلهين مارا وبراهما، بين الكائنات كلها، بمن في ذلك النساك والبراهمن، والآلهة، والبشر. وانكشفت لي المعرفة والفهم.

إن خلاص قلبي راسخ لا يتزحزح، إنه ميلادي الأخير، وليس ثمَّة بعث آخر (لي)».

لم يكتب بوذا موعظته هذه، ولم يكتبها تلاميذه كذلك. فهل نستطيع أن نثق بأصالتها؟ يؤكد المتخصصون أن ذلك ممكن. فالعارفون بتاريخ الثقافة الهندية القديمة يؤكدون أن طريقة العرض (كثرة التكرار)، والحفظ كانت تسمح بحفظ كل كلمة وتذكّرها على مدى قرون. وفي مدارس الهند بالذات، كانوا يعلّمون أمراً واحداً أساسياً، هو إتقان الحفظ غيباً. ولو كان الأفذاذ في فن الحفظ من معاصرينا هناك، لكانوا من الراسبين دوماً من غير شك. ولكنهم على أي حال، دوّنوا عظة بوذا هذه فيما بعد، ونشروها باتجاهين: شمالي وجنوبي. وليس ثمَّة تباين بين الروايتين الشمالية والجنوبية. والأمر غير المعتاد بالنسبة إلينا، هو حساب الصفات والحسنات بالعدد. فقد اقتبس بوذا هذه «الطرق ذات الأطراف الثمانية»، و «العناصر الخمسة»، و «المعرفة الثلاثية الأبعاد، ذات الأحد عشر طرفاً»، وسوى ذلك من الأرقام الحسابية عن المعلمين الذين أخذ عنهم فلسفة سانكهيا. وكلمة سانكهيا هذه نفسها معناها «عدد». وتعد هذه الفلسفة نفسها فلسفة «إحصائية». ونحن كنا قد قلنا: إن البراهمن أقروا بوجود الروح الكوني، وسعي روح كل إنسان للرجوع إلى الروح الكوني والاندغام به. لكن بوذا أنكر وجود الروح الكوني، مركز الوجود هذا إنكاراً قاطعاً. وعدّ الأمر كله مجرد تصور تجريدي، خواء. واعتقد بأنه ليس ثمَّة وجود حقيقي إلا للظاهرات الحسنة، لكن هذه غير ثابتة، فهي متغيرة أبداً بسبب افتقارها إلى مخرج مشترك واحد. وقد دعا بوذا هذا التقلب «ناراً تلتهم العالم كله». لكن بوذا أبقى نفسه وحيداً في مواجهة خطر انهيار الوجود كله، عندما أزاح محور الارتكاز الرئيس الذي تستند إليه لوحة العالم الواحدة، أي الروح الكوني. وقال: «إن المركب سوف تسقط عاجلاً أم آجلاً، مثلما يجب أن يموت المولود، كل مولود. فالظاهرات تختفي واحدة إثر الأخرى، ويتحطم الماضي، والحاضر، والمستقبل، وكل شيء طارئ وعابر، لأن قانون التقويض فوق الكل. فالنهر يجري متسارعاً ولا يعود، والشمس تقطع طريقها من غير أن تتوقف، وينتقل الإنسان من الحياة السابقة إلى الحياة الحاضرة، وليس ثمَّة قوة يمكنها أن تعيده إلى الحياة التي انصرمت. في الصباح نرى مادة ما، وإذ يحل المساء لا نعثر لها على أثر. فما الفائدة إذاً من الجري وراء سعادة وهمية؟ يسعى الآخر جاهداً لكي يحققها في هذه الحياة، بيد أن جهوده تذهب أدراج الرياح، إنه يطرق الماء بالعصا، معتقداً أنها عندما تنشق تبقى هكذا دوماً. فالموت يمتلك العالم بقبضة قوية، ولا شيء قط، لا الهواء، ولا البحار، ولا الكهوف، ولا مكان في الكون كله يحجبنا عنه،

ولا تحمينا منه الثروة ولا المجد؛ إن كل ما هو زمني سوف يخبو ويندثر. وكلنا أمام الموت متساوون: الثري والفقير، والنبيل والوضيع، ويموت الكهول والشباب، كما يموت من بلغ أواسط العمر مثلما يموت الوليد، وحتى الجنين في رحم أمه؛ جميعهم يموت بصرف النظر عن السن، ومن غير خيار. إننا نسير نحو الموت مباشرة، وسوف تقودنا الطريق إليه من غير ريب. إن جسد الإنسان هو نتاج عناصر الطبيعة الأربعة، وهو وعاء هش يتناثر أشلاء عند أي صدمة قوية. ويشكل على طول الحياة كلها مصدراً للأهوال والقلق والآلام. وتحل الشيخوخة حاملة معها الأمراض: يتقلب العجوز في تشنجات الاحتضار كالسمكة على رماد حار، إلى أن يأتي الموت أخيراً ويضع حداً لآلامه. والحياة بدورها كالثمرة الناضجة، التي تسقط مع أول عصفة ريح؛ لذلك ينبغي علينا أن نحذر انقطاع تيارها في كل غمضة عين، تماماً مثلما تصمت أنغام القيثارة، عندما تنقطع أوتارها تحت يدي العازف. وليس ثمَّة ملجأ أو حمى سوى النيرفانا. «فالنيرفانا هي ماء الحياة الذي يروي ظمأ الأماني، إنها المداوية التي تبرئ من الآلام كلها».

«بعد دورة متواصلة من أشكال الوجود التي لا عد لها،
وبعد تبديل أحوال لا عد لها، بعد الجهود كلها، والتوترات،
والقلق، والآلام الملازمة لنزوح الروح، نرمي أخيراً
عن كاهلنا عبء أغلال الخوف، ونتحرر من كل شكل من أشكال
الوجود، والزمان والمكان ونستغرق في السكينة، في
مأمن عن الأحزان كلها، والآلام كلها، ونغرق في نعيم
لا ينتهك حرمته أي شيء: نغرق في النيرفانا».

إذاً، بما أن الوجود كله معاناة، فإن الخلاص من هذه الأخيرة يقتضي تدمير الوجود نفسه، «إطفاءه في النيرفانا». ولهذا فإن المسألة الرئيسة تتلخص في الإجابة عن السؤال الآتي: كيف نفعل ذلك بالضبط؟ لقد ألقى بوذا موعظته على خمسة رهبان، وقد وصف البوذيون الجنوبيون هؤلاء، «بمجموعة الخمسة»، بينما وصفهم الشماليون بالذين «يؤلفون المجموعة الرائعة». ثمَّ التفت إلى تعاليم بوذا إضافة إلى الرهبان الخمسة، ابن أحد الحرفيين الأثرياء، وحذا حذوه والده، وزوجته وأصدقاؤه الكثر. فبات عدد طائفة بوذا قرابة الستين نفراً. وكان بوذا يولي اهتماماً كبيراً لنشر تعاليمه. فأخذ يرسل تلاميذه إلى مختلف الأرجاء مزوداً

إياهم بالكلمات الآتية: «أمضوا، اذهبوا إلى كل مكان لتحملوا الخلاص لأناس كثيرين، من الآلام إلى السلام إلى الخير، خلاص الآلهة والبشر وغبطتهم». وطلب منهم ألا يذهبوا في الطريق عينها اثنين معاً، بل واحداً واحداً لكي تنتشر التعاليم أسرع فأسرع. وهذا ما حصل فعلاً، إذ شاعت تعاليم بوذا شيوعاً واسعاً بزمن قياسي. فقد كانت تلك التعاليم تعاليم مفتوحة لجميعهم، ولم يشكل لانقسام الكاستي عائقاً في طريقها. وكان بوذا نفسه يعظ من غير توقف. فذهب إلى أورفيلا، التي التحق فيها بطائفته ألف براهمن كان على رأسهم ثلاثة أخوة من سلالة كاشيانا. وأمام هؤلاء الأنصار الجدد، ألقى بوذا عظة جديدة عرض فيها لبّ تعاليمه، ويحلو للمتخصصين أن يعقدوا مقارنة بين عظة بوذا هذه وعظة المسيح على الجبل. ففيها لخّص بوذا - كما فعل المسيح في عظة الجبل - الموضوعات المنهجية لتعاليمه، ولذلك تدعى تلك الموعظة «عظة الجبل البوذية». لقد قال بوذا في تلك الموعظة:

«اللهب يلف كل شيء أيها الرهبان، فما هو هذا الكل شيء أيها الرهبان، ما الذي يلفه اللهيب؟ العين أيها الرهبان... يلفها اللهيب، والأشياء المدركة يلفها اللهيب؛ والانطباعات الروحية التي يثيرها البصر يلفها اللهيب؛ والانطباع الناشئ عن ذلك يلفّه اللهيب، ولكن هل هو محبب أم مؤلم، أم هو غير محبب وغير مؤلم؟ فأي نار ألهبت كل شيء؟ الحق أقول لكم، إنها نار الشهوة، نار البغض، نار العمه؛ يشعلها الميلاد، والشيخوخة، والموت، والرؤية، والحزن، والمرض، والكرب، كلها مفعمة باليأس! والأذن والأصوات يلفها اللهيب أيها الرهبان، والأنف والروائح، واللسان والطعم، والجسد والملامسات، والنفس والانطباع يلفها اللهيب (يلي ذلك

الحديث نفسه عن باقي أعضاء الجسد). وإذا ما وازن
المستمع الضليع في الكتب، والمواكِب للطريق النبيلة،
هذا كله فإن عينه سوف تسئمه، وستبعث الأشياء
المرئية السأم في نفسه أيضاً، وسوف تسئمه كذلك،
الأحاسيس التي تنشأ عن ذلك، محببة أم ممضّة،

غير محببة أم غير ممضة (يتكرر بعد ذلك النص عينه بصدد الأذن، والأنف، واللسان، والجسد، والروح).

وحين يسئمه هذا كله لأنه يتحرر من الخوف، وعبر
تحرره من الخوف يحقق الخلاص. وحين يحقق
الخلاص يعي أنه أنقذ، فيتضح له أن البعث
قد انتهى، والقدسية تحققت، وأنه أدى واجبه،
ولا عودة له إلى هذا العالم بعد».

لقد كان بوذا قد زار مدينة راجاغريها قبل أن يبلغ الصحوة. فاستقبله ملكها بيمبيسارا على الرحب والسعة، بل عرض عليه نصف مملكته كما تقول الرواية. ومن الواضح أن بوذا رفض عرض الملك. لكنه وعد بزيارة المملكة مرة أخرى. وها قد حان وقت الزيارة الموعودة. فبعد أورفيلا زار بوذا الملك بيمبيسارا، فاعتنق الملك وعدد كبير من مواطنيه، تعاليم بوذا. وبقي الملك طوال حياته حامياً لبوذا.

لقد أهدى بيمبيسارا بوذا متنزهاً كبيراً: دغلاً من القصب، وقد ارتبط كثير من أحداث حياة بوذا بذلك الدغل.

وفي راجاغريها قابل بوذا تلميذين جديدين، هما شاريبوترا، وماودغالياتشنا. وعندما قابلا هذان التلميذان بوذا، أخذا يستوضحان منه جوهر التعاليم. فأجابهما بوذا قائلاً: «إن أشكال الوجود لها علة، وقد أعلن الكامل هذه العلة، وفيها نفسها هلاكها. هكذا علم الناسك العظيم». وشرح شاريبوترا هذه الصيغة المبتسرة للتعاليم، على الوجه الآتي: «كل ما هو خاضع لقانون النشوء، خاضع لقوانين الزوال» فقال شاريبوترا لأشفاجيت: «إذا كانت التعاليم لا تحمل

شيئاً آخر غير هذا، فإنك قد عثرت على الملجأ الذي لا معاناة فيه، الملجأ الذي بقي آلافاً مؤلفة من القرون الكونية متخفياً غير مرئي!» وهكذا أدرك بوذا أين تكمن علّة أشكال الوجود، أي سلسلة الولادات كلها، وأدرك بالتالي كيف يمكن تحطيمها.

لقد كانت تعاليم بوذا شائعة جداً، والتحق بطائفته كثير من شباب العائلات النبيلة الذين كانوا يشغلون مكانة اجتماعية مرموقة. فأثار ذلك سخطاً كبيراً؛ لأن الفتيات الثريات لم يعدن يجدن من يتزوجن، فبقيت السلالات الأرستقراطية من غير ورثة. فصاح الشعب مردداً وراء رهبان بوذا: «لقد جاء الناسك العظيم إلى هيريفراجا، مدينة المهادهيين؛ وحوّل تلاميذ سامجاي كلهم، فمن ينوي أن يحوّل اليوم؟»

ونزولاً عند رغبة والده، زار بوذا دياره في مدينة كابيلافاستو. ومع أن كثيراً من الملوك كان يشرّفه وقتذاك أن يستقبل بوذا في قصره، إلا أن والديه لم يكونا راضيين عن حاله. ولم يكن سبب ذلك كبرياؤهما الملكية فقط، بل تردي حالة مملكتهما. فقد كانت الممالك الصغيرة في الهند الوسطى، هي بقايا اتحاد دول مدن سبق وجودها. وكانت تنمو وتزداد قوة على مقربة منها، دولتا كوسالا وماهادها. وقد سعت هاتان لإقامة مملكة واحدة. وكان حكام الدول والممالك الصغيرة يدركون جيداً أن نهاية استقلالهم آتية لا محالة. ولذلك كان والد بوذا شديد القلق بسبب هجرة ولده لشؤون الدنيا. ففي ذلك الوقت عينه كان حكام كوسالا يصيدون على أراضي الساكيين من غير إذن منهم، إذ عدوا تلك الأراضي من أملاكهم. كما تطاول أحدهم، وأخذ فتاة ساكية زوجة له بالقوة. وكان ذلك أمراً مهيناً بالنسبة للساكيين، لأن حكام كوسالا كانوا ينتمون إلى كاستا وضيعة. وقد تطورت الأحداث في هذا الاتجاه متسارعة، وفي حياة بوذا نجحت دولة كوسالا في ابتلاع وطنه.

لقد أسفرت زيارة بوذا لمنزله ومدينته الأم، عن النتائج التالية: التحق راهولا ابن بوذا بالطائفة، وقُبل أخوه غير الشقيق ناندا، الذي كان عليه أن يتزوج، قُبل راهباً في الطائفة. وانضم إلى الطائفة أيضاً ولدا عم بوذا: أناندا ودافاداتا. وكان مقدراً أن يغدوا الأول منهما تلميذ بوذا الحبيب - كما كان يوحنا عند المسيح -، والثاني خائناً: (يهوذا الاسخريوطي) لقد صار أناندا رسمياً راهباً بعد عشرين عاماً من التلمذة على يد بوذا. لكنه رافق بوذا كظله، وحفظ عنه أكثر مما حفظ جميعهم عنه. ومات بوذا بين يدي أناندا، تلميذه الحبيب. وقال أناندا عن نفسه: «لقد خدمت السيد 25 عاماً بالمحبة، والقلب، واللسان، واليدين، ولم أفترق عنه، كما لم يفترق عنه ظله».

أما دافاداتي فقد بقي أعواماً طويلة يحسد بوذا. لكن خيانته لم تظهر صراحة إلا فيما بعد، حينما بلغ بوذا السبعين من العمر، عندئذٍ طالبه دافاداتي بأن يعلنه قائد الطائفة، أي أن يجعله وريثاً له.. لكن بوذا رفض طلبه. فأحدث دافاداتي شرخاً في الطائفة. إذ طالب بمزيد من الصرامة في شروط عيش الرهبان. فطلب ألا تكون إقامة الرهبان في القرى، بل في الغابة، وألا يعيشوا على الصدقات (ينبغي عليهم أن يرفضوا أي دعوات إلى الموائد)، وألا يرتدوا سوى الأسمال، وألا يقتاتوا إلا بورق الشجر، وألا يستهلكوا اللحوم في طعامهم أو الأسماك، وألا يفيدوا من السقوف. وقد ضمّن دافاداتي هذا كله بالميثاق الذي أعده للطائفة. لكن بوذا رفض هذه المطالب كلها، لأنه على وجه العموم، كان يرفض كل تطرف في التقشف. بيد أن فريقاً كبيراً من الرهبان أقر ميثاق دافاداتي، وانشق عن الطائفة خمسمئة راهب. وهناك رواية تقول: إنهم أعلنوا ندمهم وتوبتهم بعد وقت، وعادوا إلى صفوف الطائفة. لكن رواية أخرى تفيد بأن دافاداتي نفسه عاد وقد أضناه عذاب الضمير، ويبدو أن الرواية الأولى هي الأصح، لأن أنصار دافاداتي كانوا لا يزالون موجودين في الهند حتى القرن الميلادي السابع.

وعلى أي حال، كان يمكن لدافاداتي في أن يتصرف في الحالة المعنية، وفق قناعاته. ولكن موقفه مع الملك بيمبيسارا كان من غير ريب، موقفاً خسيساً. فمن المعروف أن بيمبيسارا اتخذ من بوذا موقفاً أبوياً جميلاً، الأمر الذي لم يعجب دافاداتي، فحرّض أجاتاشاترا، ابن الملك، على قتل والده والاستيلاء على العرش. بيد أن الابن اقر لوالده بكل شيء في لحظة ندم وتوبة. فقال الأب الملك لابنه، إن العرش لا يساوي بغض الابن لأبيه، وتنازل له عن التاج. ومع ذلك لم يتراجع دافاداتي عن خسته، ونجح في التحريض على الملك الذي تخلى عن عرشه، حتى أوصله إلى درجة الموت جوعاً. وفي آخر المطاف ندم الابن، وجاء إلى بوذا طالباً الصفح، فصفح عنه، وقبله في الطائفة.

لقد وصفت المصادر القديمة الطور الأول والطور الأخير من تنسك بوذا، وصفاً أكثر كمالاً. أما الطور المديد الذي يتوضع بينهما، فلم يبق لنا عنه سوى معلومات قليلة. ويميل العلماء إلى القول: إن تلك السنوات سارت على وتيرة واحدة: جاب بوذا البلاد يبشّر بتعاليمه، ويجنّد أنصاراً جدداً. ونحن يمكننا ألا نشك في أن كل شيء قد حصل في أثناء ذلك: المصاعب، والخداع، والغدر، والخيانة، والفشل. وفي هذا تكمن الحياة نفسها. ففي فصل الأمطار (4 أشهر)، كانت الحركة تتوقف تماماً (بما في ذلك التجارة). فيلجأ الرهبان إلى أكواخهم أو سقائفهم

المغلقة، ويديرون حواراتهم. وقد أقام هؤلاء في الأدغال التي أهديت تقدمات للطائفة. وكان بوذا نفسه يقضي فصول الأمطار في ضواحي المدن الكبرى، مثل مدينة فيلوفان، وراجاغريها، وشرافاستي. وكان يقع هنا على مقربة من شرافاستي «دغل جيتا» الذي قدمه لبوذا، التاجر الثري أناتها بيندينا الذي كان من أتباع تعاليمه الغيورين. لقد كان هذا المكان هو المكان المحبب إلى قلب بوذا؛ وكان سكان المدن يتوافدون عليه وعلى رهبانه ليستمعوا إلى المواعظ عن التعاليم الجديدة.

لقد كان نظام عيش الرهبان على الوتيرة الآتية: الحقبة الصباحية للتمارين الروحية، وبعد ذلك يحملون مواعينهم ويتوزعون لجمع الصدقات، يلي ذلك قيلولة الظهر؛ وفي المساء يأتي المؤمنون إلى الرهبان. كما كان الرهبان وبوذا يتلقون دعوات إلى مائدة الغداء. وكانت تلك الدعوات تأتي من الأثرياء كما من الفقراء. وكان بوذا يقبلها بالدرجة عينها من الشكر والامتنان. وعندما لم يكن ثمَّة ما يؤكل، كان بوذا يحمل ماعونه كأي راهب آخر، ويجول يجمع الحسنات.

وما يجب الإشارة إليه في هذا السياق، هو أن جمع الحسنات كان محكوماً بقواعد صارمة. فلا يجوز للراهب أن يدخل بيتاً طلباً للصدقة، إلا مغطى بردائه العلوي ونظره إلى الأرض. ولم يكن مسموحاً له أن يبقى في البيت وقتاً طويلاً. وكان عليه أن ينتظر الصدقة صامتاً إلى أن يملؤوا له الماعون. وفي أثناء ذلك كان عليه ألا ينظر إلى وجه من يتصدق عليه. بعد ذلك كان على الراهب أن يغطي الماعون المليء بردائه وينسحب بهدوء وصمت. وفيما يتعلق بالنساء، فقد حذروا الرهبان: «أيها الرهبان، إياكم أن تنظروا إلى النساء! وإذا قابلتكم امرأة، فلا تنظروا إليها، واحذروا أن تكلموها. ولكن إذا تحدثتم إليها، فضعوا في أذهانكم: أنا راهب، ويجب أن أعيش في هذا العالم الآثم كزهرة اللوتس، التي لا يلطخها الطين. أما العجائز منهن، فيجب أن تنظروا إليهن كما تنظرون إلى أمهاتكم، وإلى الأكبر منكم قليلاً، كما إلى أخواتكم الكبريات، وإلى الأصغر، كما إلى أخواتكم الصغيرات». وهناك نصوص تتضمن تحذير الرهبان من النساء. ومنها على سبيل المثال، النص الآتي: «إذا ما أتيحت فرصة مناسبة، أو مكان مستور، أو غاو مناسب، فإن كل امرأة مستعدة لارتكاب الإثمَّ حتى مع مشوّه، إذا لم يكن هناك آخر». أو كما في نصّ آخر: «تجري الأنهار كلها متعرجة، والغابات كلها تتألف من شجر، والنساء كلهن قادرات على ارتكاب الإثم، إذا ما رأين أنهن يستطعن ذلك من غير عقاب».

وواقع الحال، هو أن الرهبان كانوا غالباً ما يتعرضون للغواية. والدليل هو الحادثة الآتية: «دخل دار تاجر يوماً راهب فتي ساحر الحسن، ولما رأته زوجة التاجر الشابة، أغرمت بسحر عينيه في اللحظة. فقالت له: لماذا حملت هذا النذر

اللعين؟ ما أسعد المرأة التي تنظر إليها هاتان العينان. عندئذٍ اقتلع الراهب إحدى عينيه ووضعها على كفه، وقال لها: انظري يا أمي، هذه هي قطعة اللحم العفنة، فخذيها إذا كانت تعجبك، والعين الثانية مثلها أيضاً. قولي لي: أي شيء جميل فيها؟»

لقد كان الرهبان يتقبلون برضى، رفض منحهم الحسنات. وما كانوا يجمعونه منها، كان يوزع على الوجه الآتي: حصة للفقراء، وحصة للكواسر والجوارح، والباقي لغداء المشاركين.

أما القاعدة الأخلاقية، المسوّغ الأخلاقي لتلقي الرهبان الحسنات، فإننا نجده في النص التالي المأخوذ من سوتانيياتي:

«هذا ما سمعته أنا. لقد جاء السيد (أي بوذا) يوماً إلى ماهادها في ديكشينا جيري، إلى قرية البراهمن: الإيكانالي. وكان الوقت وقت زراعة المزروعات، وللبراهمان كريشيبها رادفاراجي خمسمئة محراث مقرون. وفي الصباح ارتدى السيد رداءه، وحمل ماعونه ومضى إلى المكان الذي كانت تجري فيه أعمال البراهمان كريشيبها رادفاراجي. وحيث آن وقت توزيع الطعام، ذهب السيد إلى هناك ووقف بعيداً. وإذ رآه البراهمن ينتظر حسنة قال له: أنا ناسك أحرث وأزرع، ولا آكل إلا مما أحرث وأزرع. وأنت أيضاً ناسك، وعليك أن تحرث وتزرع، ويجب ألا تأكل إلا ممّا تحرث وتزرع. وأنا كذلك براهمن أحرث وأزرع، وآكل بعد أن أحرث وأزرع. ولكننا لا نرى عندك يا هاوتاما نيراً، ولا محراثاً، ولا سكة محراث، ولا ثوراً، ولا بغالاً. عندئذٍ قال السيد: الإيمان بذاري الذي أزرع، وترويض النفس هو المطر الذي يخصب بذاري، والمعرفة نيري ومحراثي وثوري. وأنا نقي الروح نظيف الجسد، معتدل في طعامي؛ أنا أقول الحقيقة لكي استأصل النفاق (الكذب)، والرحمة هي مقروني، والجهد حيوان عملي الذي يحملني إلى النيرفانا: إنه يمضي بي ولا يلتفت إلى المكان الذي ليس للآلام فيه مكان. تلك هي حراثتي، وثمرتي هي الخلود، ومن يحرث هكذا يتحرر من الآلام كلها. عندئذٍ سكب البراهمان الرز المطهو بالحليب في ماعون ذهبي وقدّمه إلى السيد قائلاً: كل يا هاوتاما، نعم أنت الفلاح، لأنك تحرث حرثاً ثمرته الخلود».

وعرفت طائفة بوذا قواعد سلوك وعيش مشترك محددة ضبطت سلوك الرهبان، فقد دعي أعضاء الطائفة بالفقراء (بيكشو)، لأن واحدهم كان ملزماً عند الانضمام إلى الطائفة بألا يملك أكثر مما هو ضروري للعيش. والتزم عضو الطائفة بأن يحيا حياة مستقيمة ملتزمة: أن يكون صادقاً، نقي الروح، هادئاً،

لطيفاً، ليس ذي هوى، ووقوراً. كما كان عليه أن يرتدي رداء خيط من مزق قديمة مرمية. وفرض عليه أن يلتزم باللون الأصفر (لأن بوذا هرب من حياته الدنيا برداء أصفر). لقد كان على أعضاء الطائفة أن يحلقوا شعر رؤوسهم ولحاهم. وكان يحق لكل منهم أن يمتلك ثلاثة أردية (بعدد فصول السنة)، وبساطاً، وماعوناً لجمع الحسنات، ومثبرة وكبّة خيوط، وزوجاً من الجرابات، ومداسين، وحرّم عليهم أن يلامسوا الأشياء الثمينة مجرد ملامسة.

وكان كلهم يُقبل في الطائفة على حد سواء، بصرف النظر عن الانتماء الكاستي وامتلاك الثروة. فالمقياس الأهم واحد: اعتناق تعاليم بوذا، وعقد النية على تحقيق الخلاص. لكن من كان قد انتسب إلى الطائفة منذ زمن، كان يحظى بسمعة أكبر. فالبراهمان على سبيل المثال، قد يفسح للسودرا، إذا كان هذا الأخير قد انضم إلى الطائفة قبله. وغني عن البيان أنهم لم يقبلوا في الطائفة المرضى بأمراض معدية، أو مستعصية، كما لم يقبلوا فيها العبيد إلا بعد أن ينال هؤلاء حريتهم، ولم يقبلوا الموظفين، أو الجنود الذين في الخدمة. أما صغار السن فقد كان قبولهم مشروطاً بموافقة والديهم. وفي حال قبولهم في الطائفة، كانوا يوضعون تحت إشراف مرشد، إلى أن يبلغوا سن الرشد، وكان ثمَّة حقبة اختبار مدتها أربعة أشهر يخضع لها حتى الراشدون الذين ينضمون إلى الطائفة. وكان على كل من هؤلاء أن يختار لنفسه مرشداً.

وكانت للنساء طوائفهن أيضاً. وهاكم قصة تأسيسها: بعد أن توفي والد بوذا، لم تستطع زوجته (خالة بوذا) أن تتعزى، فجاءت ومعها خمسمئة امرأة من سلالة بوذا، وطلبت منه قبولهن في الطائفة. وكانت النسوة قد قصصن شعر رؤوسهن وجئن إلى بوذا سيراً على الأقدام. وهنا في مقر الطائفة في مدينة فايشالي، توسلت مهابراجاباتي بوذا، وقدماها متورمتان ووجهها أضناه الحزن، أن يقبلها ومن معها من النسوة في الطائفة. ولكن ذلك لم يكن أمر معتاداً في ذلك الزمن، ولذلك عارض بوذا قبولهن طويلاً. بيد أنه وافق في آخر المطاف على قبول النسوة في طائفة مستقلة شريطة تأديتهن ثمانية التزامات «القواعد العظمى»:

1- على الراهبة أن تنحني للراهب حتى لو كانت مكرسة قبله بمئة عام، فتقوم له في مجلسها وتستقبله بالاحترام الواجب.
2- لا يحق للراهبة أن تقضي فصل الأمطار في مكان ليس فيه راهب.
3- عليها أن تطلب من طائفة الرهبان مرتين كل شهر، تحديد يوم أوبافاساتها وتتوجه إليه طالبة الإرشاد.
4- عليها حين ينتهي فصل الأمطار، أن تعرض على اجتماع الرهبان والراهبات، ثلاثة أسئلة: هل رأى أحد ما شيئاً ما سيئاً صدر عنها، أو هل سمع، أو هل يظن شيئاً؟

5- إذا ما خالفت الراهبة أياً من القواعد العظمى الثماني، فيجب أن تعاقب في اجتماع الرهبان والراهبات مدة أسبوع ندماً وتوبة وتكفيراً.
6- يحق للراهبة أن تطلب من طائفة الرهبان والراهبات أن تنعما عليها بالأوباساميادا، لكن بعد أن تتعلم أثناء سنتين، ستة واجبات.
7- لن تجرؤ في أي يوم وفي أي ظرف أن تشتم الرهبان أو تعيرهم.
8- يمكن للراهبة أن تطلب النصيحة من الراهب، ولكن ليس الراهب من الراهبة.

وعلاوة على ما سُمح للراهب أن يقتني من أشياء، كان يحق للراهبة أن تقتني سترة وبدلة حمام. أما التبرج فقد حرم عليهن تحريماً صارماً. كما لم يسمح للراهبات بالعيش في الغابة، بل فرض عليهن أن يقمن في المدن أو القرى، ولكن ليس بمفردهن.

لقد كان بوذا يعاني مشكلات خطيرة في طائفته، فقد كان تنظيمها تنظيماً فريداً من نوعه. أولاً، لم يكن في الطائفة أي تراتبية، وهذا ما أعاق إدارة شؤونها. ومع أن كبار الرهبان عدوا الأهم والأكثر نفوذاً، إلا أنه لم يكن لهذا الأمر أي نتائج عملية. وما زاد الأمر سوءاً، أن الانضمام إلى الطائفة كان مفتوحاً لمن يشاء. وهذا يعني أنه كان يمكن لأي فار من الخدمة العسكرية، أو تسديد دين، أو كل من ارتكب جريمة، أن يجد لنفسه ملجأً هنا. كما كان الخروج من الطائفة حراً بدوره. وهكذا كان كادر الطائفة متبدلاً غير ثابت. زد إلى هذا أن بوذا كان يرسل رهبانه ليبشروا بتعاليمه في شتى أرجاء البلاد. وعندما كان يرجع هؤلاء، كانوا يتحدثون في الطائفة عن تعاليم، ورؤى، وأنظمة أخرى اطلعوا عليها في أثناء رحلاتهم. وقد كان من شأن ذلك كله أن يثير الطائفة، ويدفعها إلى التململ، وأحياناً إلى العصيان.

فالدهامابادا مثلاً، تصف لنا نزاعاً خطيراً ظهر في الطائفة في العام التاسع من نشاط بوذا التبشيري. وكان النزاع قد بدأ عندما انتهك أحد الرهبان ميثاق الطائفة أثناء غياب المعلم. وحسب الميثاق كان على الراهب أن يقر بذنبه علناً، ويعلن ندمه وتوبته. لكن الراهب رفض أن ينفّذ المطلوب، فأقرت الطائفة طرده. ولكن سرعان ما انتشر الصدام، لأنه كان للراهب المذنب أنصار كثر. ووصل الأمر حد العراك بين المتخاصمين على مرأى من المؤمنين. ووجّه الرهبان انتقادات حادة إلى بوذا نفسه:

«ارحل أيها السيد والمعلم السامي، تنعم براحة البال، هب اهتمامك كله وتفكيرك كله لتعاليمك، فنحن بتنا قادرين على حل نزاعاتنا، وخلافاتنا من غيرك».

فلم يجب بوذا على هذا، بل قام ومضى. وفي اليوم التالي جمع الرهبان ووقف في وسطهم وأنشد الأبيات الآتية:

«عال هو الصخب الذي أثاره ناس عاديون.
لا أحد يرى نفسه غبياً، عندما ينشأ النزاع
في الطائفة، ولا أحد يرى الآخر أعلى منه».

ثمَّ مضى يقول:

«إذا لم تجد صديقاً ذكياً، رفيقاً مستقيماً، ثابتاً، فعليك
أن تجوب وحيداً كالملك الذي ترك مملكته التي أضاعها،
كالفيل في غابة الفيلة. ومن الأفضل أن تجوب وحيداً،
لأنه لا شراكة مع أحمق. وإذ تجوب وحيداً لا تقترف
إثماً، وتبقى بلا همّ، كالفيل في غابة الفيلة».

ثمَّ ترك بوذا أنصاره ومضى إلى تلاميذه الذين كان يحبهم. وقد وجد معهم سكينة روحه، لكنه سرعان ما تركهم إلى باربليانا. وأقام هناك في مغارة معزولة يتمتع بوحدته وسكونها. هكذا قضى بوذا فصل الأمطار العاشر. وتوجه بعد ذلك إلى جيتافانا.

أما الرهبان المتمردون فقد عاقبوا أنفسهم بأنفسهم، أو بمعنى أوضح، عاقبهم المؤمنون. إذ هدّؤوا غضبهم وامتنعوا عن منحهم الحسنات. ولم يعد الحديث ممكناً عن أي إجلال أو احترام. فصارت ظروف العيش مستحيلة، عندئذٍ جاء الرهبان إلى بوذا يطلبون الصفح. فعاقب المذنبين بالصوم والصلاة، وصفح عن الباقي.

وقد وصفت لنا المصادر القديمة كثرة من مثل هذه النزاعات. فبعد موت بوذا مثلاً، قال راهب يدعى سوبهاردا لأعضاء الطائفة: «كفوا أيها الأخوة عن الشكوى والشجن! فإنه لحسن حظنا أن فارقنا الناسك العظيم. لقد أضنانا بقوله: هذا يليق بكم وذلك لا يليق بكم. إننا نستطيع أن نفعل الآن ما يطيب لنا». إذاً بعد وفاة بوذا، سرعان ما تبعثرت طائفته.

لقد كان مقدراً لبوذا أن يشهد سقوط مملكة سلالته الساكية قبيل وفاته بحقبة قصيرة. والسبب الموضوعي لذلك السقوط واضح: مملكة ضعيفة عجزت عن الصمود أمام ضغط دولة جبارة. ولكن المؤرخين يبحثون في تلك المأساة عن

دوافع شخصية، وهو ما نرى أنه يبتعد عن الجوهر الحقيقي لما حدث. فالعداء بين مملكة كابيلافاستو وملك كوسالا الجبار، بدأ حينما انتزع هذا الأخير فتاة من السلالة الساكية زوجة له بالقوة. فقد رأى الساكيون في ذلك إهانة كبرى لهم، وأشاعوا أن الفتاة لم تكن تنتمي يوماً إلى الساكيين، إنما هي أمة بسيطة تجمع الزهور. زد إلى هذا أن الساكيين حاولوا مراراً أن يقتلوا ولي عهد كوسالا، فيروتشجاكي. وما إن استوى هذا على العرش حتى أخذ يستعد للحرب ضد الساكيين. وقد أدرك الساكيون حقيقة الخطر الذي كان يحيق بهم، فطلبوا من بوذا أن يسعى لتسوية الخلاف بطريقة سلمية. لكن سعيه لم يسفر عن أي نتيجة. فلم تكن الكبرياء الجريحة وحدها التي تحرك ملك كوسالا، إنما الضرورات الاقتصادية الملحة التي كانت تتمثل في ضم أراضي الساكيين الخصيبة الغنية إلى أراضي مملكته. لقد دمر فيروتشجاكي عاصمة الساكيين، وقتل فيها أكثر من مئة ألف نسمة. ومن نجا من الساكيين فر إلى نيبال والدول المجاورة الأخرى. ولما كانت المأساة تدور، حاول بوذا أن يوقف الغزاة عن طريق المباحثات، بيد أنه شهد بعدئذٍ وقائع فصولها فصلاً فصلاً. وكان حينئذٍ في أدغال ضواحي العاصمة ومعه تلميذه المفضل. فسمع صخب القتال، وصليل السيوف، وصراخ الصرعى وأناتهم. لقد عجز بوذا عن درئ ما وقع فقال: «إنه قدرهم».

أما الأشهر الأخيرة من حياة بوذا، فقد وصفتها المهابارينباناسوتا. لقد صرف بوذا آخر فصل أمطار في قرية بيلوفا، التي تقع على مقربة من فايشالي. فقد مرض هنا مرضاً شديداً. وما إن تعافى منه حتى قام ومضى إلى كوسيناغارا، إلى عاصمة المالاسيين. وفي طريقه إلى هناك توقف بوذا في قرية بافو، حيث وفر له حظه السيئ وجبة غذاء من لحم الخنزير الغني بالدهن. فأضر ذلك صحته كثيراً، ولما بلغ ضواحي كوسيناغارا، كانت حالته الصحية قد ساءت كثيراً. لم يعد يقوى على المضي قدماً. لقد أضناه العطش. فجاءه تلميذه المحبب بالماء ليروى ظمأه القاتل. ثمَّ أعد له مضجعاً تحت الشجرة سالا. فاستلقى بوذا عليه ورأسه نحو الشمال. عندئذٍ أخذ تلميذه أناندا يبكي. فأخذ بوذا يهدئ من روعه قائلاً «كفى يا أناندا، لا تبتئس ولا تشكو. ألم أقل لك أنه ينبغي أن نفارق يوماً من نحب وتطيب لنا صحبتهم، لا بد من ذلك. فكيف يمكن يا أناندا لمن ولد، وتشكّل، وانبني، ألا يفنى، ألا يتهدم؟ إن هذا لا يمكن أن يكون. أنت يا أناندا خدمت الكامل طويلاً بكل محبة وصدق، لكي تفعل خيراً، من غير رياء أو كلل، خدمت بقلبك، ولسانك، ويديك. لقد صنعت الخير يا أناندا، فحاول أن تتحرر من الإثم في أسرع وقت». وبعد ذلك أرسل بوذا أناندا إلى كوسيناغارا ليعلن أن بوذا يحتضر. وكان سكان المدينة في تلك الأثناء يناقشون شؤونهم في مبنى المجلس، فقاموا من توهم، ومعهم زوجاتهم وأولادهم، ومضوا إلى بوذا يبكون وينوحون. فسجدوا للمعلم العظيم، وتوسلوا الآلهة أن يبقوا على حياته. وكان الراهب سوبهادرا، آخر من خاطبه: «آخر تلاميذ السيد». وبعد ذلك خاطب بوذا أناندا بالكلمات الآتية: «قد

يخطر لكم يا أناندا أن التعاليم فقدت معلمها، وليس من معلم بعد. ولكن ينبغي ألا تنظروا إلى الأشياء هكذا يا أناندا. فالقانون والانضباط اللذين أعطيتهما لكم، سوف يكونان المعلمين بعد موتي». ثمَّ التفت بوذا إلى الرهبان وسألهم عما إذا كان عندهم شك في صحة تعاليمه. فصمت جميعهم، وأدركوا أنها النهاية. عندئذٍ نطق بوذا بكلماته الأخيرة: «أيها الأبناء! هذا ما أقوله لكم: إن كل ما ينشأ فانٍ. كونوا غيورين على خلاصكم قدر ما تستطيعون!». بعدئذٍ فقد بوذا وعيه ومات.

فقام أنورودها وألقى في الرهبان خطبة دعاهم فيها إلى التماسك. ومضى أناندا إلى سكان المدينة ثانية، وأعلن لهم موت بوذا. فحزن هؤلاء حزناً عظيماً، وكرّموا المعلم الميت سبعة أيام متواصلة بالرقص والغناء وعزف الموسيقى، وحملوا إليه أكاليل الزهور، وأحرقوا له البخور. وفي اليوم السابع أحرقوا جثمان بوذا في مكان مقدس يقع قرب كوساناغارا. وكان قد حَمل الجثمان إلى مكان الحرق، ثمانية من أشهر شخصيات المدينة. وأقيمت مراسم الحرق وفق ما يليق بالمعلم سيد العالم. ثمَّ وزع رماد الجثمان على مختلف أمراء البلاد ونبلائها. وبعد أن مات بوذا، أراد كل من مجلّيه المشاهير أن يقتني شيئاً ما من أشيائه التي تركها. ولما كان بوذا قد مات في أرض المالاسيين، فقد رأى هؤلاء أنهم أحق بامتلاك ذخائره، وعدّوا أنفسهم ورثته الشرعيين. لكن الملوك والسلالات النبيلة ألحوا على مطالبهم، وتوصلوا في آخر الأمر إلى اتفاق: وزعوا الأشياء التي تركها بوذا إلى ثمانية أجزاء، وأخذ كل منهم جزءاً، ويقول المؤرخون إن درونا أخذ الكأس التي كان يشرب منها بوذا عندما كان على قيد الحياة. وبعد أن وزعت الأشياء وصل سفير ماورياسام بيبهاليفانا. فأعطوه ما تبقى من الفحم الذي أحرق عليه جثمان بوذا. وقد حاول كل من حصل على شيء من أشياء بوذا أن يخلده. فبنوا لتلك الأشياء أجراناً من حجر وتراب. أما الأجران فهي لم تبن بالضرورة على الذخائر التي لا تقدر الآن بثمن. ومن المعروف أن المرتفعات كانت تبنى تخليداً لذكرى شخصية مشهورة أو حدث مشهود. وقد لا يكون هناك شيء في داخل المرتفع المعني. وإذا ما كان هناك ذخائر، فإن المكان الذي توضع فيه، كان يدعى دهاتورغابها: مخزن الذخائر. وهكذا ظهرت في اللغة السينغاليزية، كلمة «داغبا» التي ينطقها الأوروبيون داغوبي. وقد أقام ساكيو كابيلافاستو بدورهم،

جرناً على وعاء رماد بوذا. وقد اكتشف هذا البناء - الهضبة في العام 1898م، على يدي عالم الآثار بيبي، على مقربة من بيرافا في تارسي. ففتح الباحث الجرن. وكان هناك أجران أخرى. ولكن جرن بوذا، كان يتميز عنها بأبعاده وشكله. فعلى عمق 18 قدماً[1]، عُثر على صندوق تحت صفيحة حجرية كبيرة، وكان هذا عبارة عن حجر رملي ذي نوعية غالية شديدة الصلابة، محفور على شكل صندوق. ويبدو أنه جيء به من مكان بعيد. وقد عثر في داخل الصندوق على وعاء للزيت عليه النص الآتي: «هذه محفظة رفات السامي بوذا من سلالة ساكي، بناء طاهر، تقدمة من أخوته وأخواته، وأبنائهم وزوجاتهم». كما عثر على إناء من الكريستال قرب الوعاء، وكان الإناء مليئاً بحبيبات من الذهب على شكل نجوم. وكان الإناء مغطى بغطاء على شكل سمكة. كما كان في المكان أصص مزخرفة مطعمة بالحجارة الكريمة. وما يثير الفضول، أن الجرن لم يمس أثناء ألفين وخمسمئة عام. وليس لدى العلماء ريب في أن ما عثر عليه هنا، هو رفات بوذا.

لقد توفى بوذا في الثمانين من عمره، فالعام المفترض لوفاته، هو العام 477ق.م.

١- 594 سم. - المترجم.

تعاليـم بـوذا

مـع تزايـد معرفـة الإنسـان بالعـالم المحيط، كـان يتبـدل تصـوّره عـن العلّـة الأولى لهذا العالم، عن بنائه، وعن أغراضه وغاياته. ففي البداية لم يدرك الإنسان سوى مقاطع من العالم المحيط به، وقد رأى في كل منها إلهه. ولكن مع دراسته العالم دراسة أعمق، أخذ الإنسان يعي أن العلة الأولى للوجود كله، لا يمكن أن تكون إلا ماهية واحدة، جوهراً واحداً. وقد كان ينبغي أن تشمل تلك الماهية العالم كله، الكون كله، وإلا فإن العالم لن يكون نظاماً واحداً ثابتاً. وعلى هذا النحو يكون الإنسان قد توصل إلى مفهوم الإله الواحد الوحيد الأوحد للكون كله. وبهذا تكون فكرة التوحيد قد ظهرت. وذكر في كتاب: «الإله، الروح، الخلود»، إلى أن التوحيد يتوافق مع التصور المعاصر عن بناء الكون. فوفق التصورات العلمية المعاصرة، أن الحقل الإعلامي البيولوجي الكوني الواحد، هو الذي يضمن أن تتطور فيه الحياة العاقلة، ووجود الكون كنظام ثابت واحد. وكانت فكرة التوحيد قد عرضت في النص التوراتي بدقة ووضوح، وكذلك فكرة الإله الواحد. أما النص القرآني فيقول بوضوح: «**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا..**»[1]. ولا ريب في أن كل باحث ذي تفكير سليم، سوف يؤيد هذه الكلمات، بصرف النظر عن ميدان أبحاثه: في نظرية النشوء، أم في الفيزياء الكونية، أم في الحضارات الموجودة خارج الكرة الأرضية، أم في ميدان الايكولوجيا. وهكذا يعدّ التحول من الاعتقاد بوجود كثير من الآلهة إلى الاعتقاد بوجود إله واحد، خطوة جوهرية جعلت الإنسان أقرب إلى الحقيقة، وأكثر قرباً من لحظة فهم العالم الذي يعيش فيه فهماً صحيحاً؛ وعليه فإن أول ما ينبغي فعله لدى دراسة هذه أو تلك من الديانات، ومقارنتها مع التصورات العلمية المعاصرة، هو تحديد المكانة التي يشغلها الإله في الديانة المعنية. ويعطي هذا في الآن عينه إجابة عن سؤال مهم آخر: ما هو مكان الإنسان في هذا العالم؟ فإذا كان الإله واحداً أوحد صانع كل شيء، والعلّة الأولى لكل شيء، فإن كل ما صنعه ينطوي على غاية محددة، وله الحق نفسه في الوجود، في العيش. وكان التوحيد قد تعايش زمناً طويلاً مع العبودية والاستعباد. لقد كان هذا في شريعة موسى كما في شريعة مانو. لقد ارتكب الإنسان إثماً ضد

١- القرآن الكريم، سورة الأنبياء: الآية 22.

الحقيقة عندما عد جزءاً من البشر مخلوقات لم يخلقها الإله. وواقع الأمر، هو أن فكرة التوحيد الحقة تنفي العبودية، واللامساواة، وتقر للآخر بالحق في العيش كالحق الذي للإنسان نفسه.

لقد بشّرت شريعة موسى بالتوحيد بدقة ووضوح. وفي زمن بوذا دعوا إلى التوحيد في الهند نفسها. ففي ذلك الوقت كان قد اكتمل الانتقال من فكرة تعدد الآلهة (البانتييزم)، الذي عرفه عصر الفيدات، إلى فكرة التوحيد (المونوتييزم). وفيما بعد صار الإله إلى ماهية كلية للوجود، وقد دعوا هذه الماهية «ذاتي»، «أنا»، أو براهمان. والبراهمان ماهية مقيمة في سكون أزلي، وهي مصدر كل شيء، وموجودة في كل شيء، وإليها يرجع كل شيء. لقد دنا كهنة تلك الأزمنة كثيراً من التصور المعاصر عن الإله الواحد. ودعوه روحاً كونياً، بينما يدعوه علماء اليوم بالعقل الكوني، أو حقل الإعلام الكوني. كما كان ثمَّة تصور شبيه جداً بالتصور المعاصر عن كون روح كل إنسان جزءاً من الروح الكوني، وإن روح الإنسان تعود بعد موته الفيزيائي، إلى الروح الكوني. وهذا ما يقول به علماء اليوم، لكن بمصطلحات أخرى، فهم يقولون: إن الصيغة الكلية للإنسان تعود بعد موت جسده، إلى حقل الإعلام الكوني. عداك عن هذا، أن علماء اليوم يؤكدون فإن الصيغة الكلية (الروح) المتبقية عن أي إنسان عاش على سطح الأرض في أي زمن كان، يمكن أن تكون مادة لإعادة صنع هذا الإنسان عينه، ولكن ليس على قاعدة المادة الآحية. فالقالب الأم يبقى، ولذلك لا يتبقى سوى أن تنسخ منه نسخة.

ولكن بوذا رفض الاعتراف بوجود الروح الكوني، البراهمان الواحد، عامل استقرار البدء كله. وهو عندما أزاح العامل الأساس، فإنه لم يبق له إلا الواقع المترنح المتبدل حتماً، المتداعي بذاته، الذي يدمر ذاته. ولو بقيت في تعاليم بوذا نقطة الارتكاز الأساسية: الروح الكوني، لكان رأى أن الميلاد ليس معاناة، إنما حلقة من حلقات النظام الواحد المتناسق للأشياء في الكون، وأن الموت بدوره ليس معاناة، لأنه وفق ذلك النظام عينه، يعني ولادة جديدة، سعادة جديدة. بيد أن بوذا رمى بالروح الكوني كأنه شيء لا لزوم له. فتحوّل كل شيء عنده إلى مصدر للمعاناة والآلام. وجنّد قواه كلها لاكتشاف وصفات لخلاص النفس من الآلام الكلية، التي تلاحق الإنسان كل حياته. ومع رميه الروح الكوني، يكون بوذا قد رمى في الآن ذاته، الإله الواحد إلى خارج العالم الذي تصوره. ومثله مثل

لابلاس، لم ير بوذا أن تعاليمه تحتاج إلى فرضية وجود الإله الواحد. وعليه فإن البوذية لم تُظلم إذ دعيت دين الإلحاد، الدين الذي لا إله له.

لكن كثيراً من المؤرخين في الميدان الديني، يرون أن الأمر لم يكن هكذا، فبوذا أقر بوجود الآلهة، الآلهة الشعبيين، نعم لقد أقر بوذا بوجود الآلهة، لكنه تعامل معهم كما كان يتعامل مع تلامذته الكسالى، لقد عاملهم وفق مقاييسه، وأفرد لهم مكاناً بعيداً عن أن يكون لائقاً. وعلى أي حال، فإن العودة من الاعتقاد بوجود إله واحد، روح كوني واحد، إلى الاعتقاد بوجود كثرة من الآلهة الآثمين (الشعبيين)، تعد بحد ذاتها نكوصاً كبيراً، ثانياً، إن التصورات التي استخرجها بوذا عن الآلهة، قلما تتوافق مع كلمة إله أو آلهة. فمرة سأله الملك براسيناجيتا عما إذا كان الآلهة يعودون إلى هذا العالم أم لا، إذ كانوا يعتقدون أن قانون نزوح الأرواح ينسحب عليهم أيضاً. فرد بوذا عن سؤال الملك قائلاً: «يعود من الآلهة إلى هذا العالم، أولئك الذين ثمَّة أسس لعودتهم، أي أولئك الذين ارتكبوا إثماً ما». فقد نقل بوذا معيار الإثم هذا من البشر إلى الآلهة: إذا ما أثم الإنسان في حياته الدنيا، فإنه سيبعث بالتأكيد إلى حياة زمنية أخرى، وسوف يتكرر بعثه إلى أن يحقق الكمال ويرقى إلى مستوى أعلى، فتتوقف عندئذٍ سلسلة نزوح الروح. إذاً، لقد وقع الآلهة أيضاً في دائرة قانون نزوح الروح، الذي كان يضني الناس. ومعنى هذا أنه إذا لم يكن هؤلاء كليي القدرة، فإنهم ليسوا بآلهة! وهذا هو الواقع حسب بوذا. فالإنسان الذي يحقق الكمال في هذه الحياة، أعلى درجات الكمال، يمكن أن يبعث في الحياة التالية إلهاً. وهذا أمر رائع من غير شك، لكن المقصود بالإله هنا، معنى مغاير، فالإله هو قانون ثابت لا يتغير، ملزم لجميعهم، بفضله يعمل الكون كله منسجماً متوافقاً كآلية ساعة ممتازة الصنع. وليس الإله مكانة أو منصباً يمنح مكافأة على سلوك حسن.

من الواضح إذاً، أن بوذا يقف من الآلهة موقفاً لا يليق بهم. كما أنه رأى أن الإنسان الذي يحقق الخلاص بفضل تعاليمه، يعلو فوق الآلهة. زد إلى هذا، أن البوذي لا يرى في التحول إلى إله رغبة سامية. وهو أمر مفهوم، لأن بوذا يرى أن الآلهة مثلهم مثل البشر، ليسوا معصومين عن ارتكاب الآثام. وكان بوذا نفسه قد وضع الآلهة والبشر في صف واحد معاً. وهذا مفهوم أيضاً، لأنه رأى أن البشر يمكن أن يتحولوا إلى آلهة. ورأى بوذا كذلك، أن الإله إيندرا نفسه، لم يبلغ عظمته المعروفة إلا لأنه كان قد صنع الخير من قبل، ومرة زار بوذا الإله إيندرا، وشرح له بنفسه، لماذا يعد الراهب أفضل من الآلهة والبشر. وعليه فإن كثيراً من الآلهة الذين يعترف بوذا بوجودهم، ليسوا سوى أدوات. وهو نفسه أعلى منهم مرتبة. وهذا أمر بديهي بالنسبة للمعلم الكامل، خاصة إذا كان هذا ينسحب (حسب بوذا) على كل راهب ينتحل تعاليم بوذا. ولذلك أجاز بوذا وجود كثرة من الآلهة، وأذن لهم بمرافقته أثناء رحلاته التبشيرية. وهؤلاء الآلهة هم: براجاباتي، وآلهة الملوك الأربعة العظام، وآلهة الموت، وآلهة السماء: توشيتا، وآلهة السعادة

اللامتناهية، والآلهة المتألقون، والعطرون، والشمسيون، والعظماء، والمضيؤون، والهلاميون، وكثرة كثيرة أخرى منهم. ويمكن أن نزيد على هؤلاء آلهة آخرون، هم آلهة الأرض، والغابات، والخشب. فتتراكم لدينا في آخر المطاف، مئات آلاف الآلهة، في زمن باتت فيه فكرة التوحيد، والإيمان بإله واحد، هي السائدة. ويبدو فعلاً أن بوذا لم يقف موقفاً جدياً من هذه المسائل، كما لم يكن له موقف جدي تجاه المسائل الأساسية الأخرى في بناء الكون: هل الكون أزلي أم لا، هل هو متناه أم لا، هل الروح والجسد مندغمان أم متباينان، هل سيعيش الكامل نفسه (بوذا) بعد الموت أم لا. وعندما طرحوا هذه الأسئلة كلها عليه، رد قائلاً: إن معرفة مثل هذه الأشياء، لا تمهد سبيل الخلاص.

ويرى دارسو البوذية، أن بوذا لم يضع أي تعليل فلسفي لتعاليمه. ونحن رأينا قبل قليل، أنه رفض المسائل النظرية البحتة رفضاً قاطعاً. فغايته كانت واحدة: إنقاذ الجنس البشري من الآلام، لذلك لم ير أي أهمية لأي شيء لا يحقق هذه الغاية تحقيقاً عملياً. وقد أصاب أحدهم حين قال: إن بوذا يعلّم في العالم الداخلي، الذي لا يمكن إدراكه بأي نظام فلسفي، أو أي معارف كانت. لقد كان الجوهر وليس الشكل هو الأهم لدى بوذا. وكان ولازير (الباحث المعروف في تاريخ الديانة البوذية) قد توصل إلى الاستنتاج الآتي: «يتميز بوذا تحديداً، بإقصاء أي مسائل ميتافيزيقية من حيث المبدأ، ويتراجع النظري في البوذية أمام العملي إلى حد يجعل أبرز سمات البوذية الحقيقية، هي اللامبالاة المطلقة تجاه كل ما هو نظري». إن الأهم في تعاليم بوذا، هو الأخلاق العملية. فقد أعطى هذا المعلم الأهمية والأكبر للسلوك الأخلاقي الصارم. فلندرس إذاً بالتفصيل، جوهر تعاليم بوذا. وكان هو نفسه قد أفصح عنه بقوله: «الانصراف عن الآثام كلها، والتوجه نحو فعل الخير، أي خير، وتنقية القلب. ذلكم هو قانون بوذا» (الدهامابادا). وكأني به يعترف في هذه المقولة اعترافاً غير مباشر، ليس بوجود الآلهة الذين يمكن أن يرتكبوا المعاصي كأي إنسان كان، إنما بوجود الإله الواحد المعصوم، بداية البدايات كلها، ومصدر القانون الأوحد للكون. وإلا كيف يمكننا أن نحدد بطريقة أخرى ما هو الإثم؟ فالإثم هو انتهاك القانون، القانون الأوحد، قانون السامي الذي نحس به وندركه بوجداننا. ولا يمكن أن تكون الآثام مختلفة حسب اختلاف البشر، والمجموعات، أو الطبقات الاجتماعية. فالقانون واحد لجميعهم،

ولذا فإن الابتعاد عنه أو انتهاكه واحد بالنسبة لكلهم. فإذا كان القانون يفرض محبة القريب، فإنه لا يجيز أكثر أو أقل. فالقانون هو القانون بالنسبة للكل. وهو نفسه الإله، ومطالبه واحدة من الجميع. وعلى هذا الغرار، فإن بوذا عندما يدعو الكل من غير استثناء، لترك الآثام كلها وصنع الخير، فإنه بهذا لا يقر بوجود إله واحد وحسب، إنما يضع أيضاً الجميع في تبعيته، في تبعية قانونه، بما في ذلك خلاص الإنسان.

وتدور تعاليم بوذا كما أسلفنا، حول مسألتين اثنتين: الآلام والخلاص. وإذا كان بوذا يرى الخلاص في عدم ارتكاب أي إثم، فإن هذا يعني أن الخلاص يتحقق عندما لا ينتهك الإنسان قوانين الإله، قوانين بناء الطبيعة، بل يعيش وفقها ومنسجماً معها. وفي هذا يكمن خلاص الإنسان والجنس البشري كله. وبما أن الأمر هكذا، فإنه يغدو من الواضح لماذا غدت البوذية، على الرغم من خصوصيتها القومية البارزة، ديانة عالمية، وانتشرت في الشرق كله، ثمَّ أخذت تستولي على الغرب أيضاً؟ لقد تراجع ما هو قومي فيها (نزوح الروح) إلى النسق الثاني. وبقي جوهر التعاليم في المقدمة: لا تنتهك قوانين الطبيعة، إنها القوانين التي بفضلها يعيش الكون، إنها قوانين الإله، وفعل الخير. إن هذه الصيغة تلائم الكل بصرف النظر عن الانتماء القومي ولون البشرة، طالما أن الإله عينه خلق البشر كلهم. لقد قال بوذا: «كما إن البحر العالمي العظيم (المحيط) له طعم واحد أيها الرهبان، هو طعم الملح، كذلك لهذه التعاليم طعم واحد فقط، هو طعم الخلاص».

لقد تحولت البوذية إلى دين عبر أخلاقياتها العملية، وكانت المحبة هي محور الارتكاز الأساس فيها. فالإله محبة. وكان المؤمن يتعهد لدى انضمامه إلى الكنيسة البوذية، أن يلتزم بالوصايا الخمس الآتية:

1- يجب عليك ألا تقتل.
2- يجب عليك ألا تسرق.
3- يجب عليك ألا تعيش غير عفيف.
4- يجب عليك ألا تكذب.
5- يجب عليك ألا تشرب المشروبات المسكرة.

ونحن ينبغي ألا نفهم هذه الوصايا فهماً شكلياً، بل فهماً عميقاً جداً. ومن الواضح أن الإنسان لا يستطيع أن يتقيد بهذه الوصايا إلا إذا قمع أهواءه. فبهذا ينقذ قلبه. وقد يتحقق الخلاص بالمحبة. «المحبة هي خلاص القلب». وقد قيل عنها: «كل الوسائل في هذه الحياة لاكتساب الفضل الديني، لا قيمة لها أيها الرهبان، فخلاص القلب بالحصة السادسة عشرة من المحبة. فالمحبة هي خلاص القلوب، تدخلها في ذاتها وتشتعل، وتتألّق، وتفيض نوراً. وكما إن ضوء النجوم كله

لا يساوي الجزء السادس عشر من ضياء القمر أيها الرهبان، إلا أن ضياء القمر يجمّ ضوء النجوم في ذاته وينير، ويسطع، ويفيض نوراً، كذلك أيها الرهبان، فإن وسائل هذه الحياة كلها لا قيمة لها لاكتساب الفضل الديني، ولا تساوي الجزء السادس عشر من نصيب المحبة في خلاص القلوب. المحبة خلاص القلوب، تضمها إليها، وتضيء، وتتألق، وتفيض ضياء. وكما تصعد الشمس في الخريف، وفي آخر فصل الأمطار، إلى صفحة السماء، وتطرد الديجور من الفضاء، وتضيء، وتتألق، وتفيض ضياء، وكما تضيء نجمة الصبح عتمة الليل في الصباح الباكر وتتألق، كذلك أيها الرهبان، كل وسائل اكتساب الفضل الديني في هذه الحياة، لا تساوي الجزء السادس عشر من المحبة، خلاص القلوب. المحبة خلاص القلوب، تضمها إليها وتضيء، وتتألّق، وتفيض نوراً». ويقول بوذا عن المحبة في مكان آخر: «إن من يضحي أيها الرهبان صباحاً، وظهراً، ومساء، بمئة قدر من الطعام، ومن يبعث صباحاً، وظهراً، ومساء، لو ومضة محبة في القلب، فإن لهذه الأخيرة نفع أعظم، وبذلك يجب عليكم أن تعلّموا هكذا: المحبة خلاص القلوب، وسوف نوقظها، ونقويها، ونمهد لها السبيل، ونستوعبها، ونمنحها، ونحققها، ونبذلها بالشكل الصحيح».

إن لمن يحب، المزايا الآتية: ينام جيداً، ويصحو جيداً، لا يرى أحلاماً سيئة، يتعامل الناس معه تعاملاً حسناً، تقف الكائنات الأخرى كلها منه موقفاً جيداً، يحرسه الآلهة، لا تؤذيه النار، ولا يؤذيه السم، ولا السيف، وإذا لم يكتسب بعد ذلك شيئاً لنفسه، فإنه يمضي إلى عالم بوذا (السماء الأعلى). وكان بوذا نفسه قد جنّد أتباعاً له «بإشباعهم بروح المحبة». وقال بوذا عن الذين كانوا يستمعون إلى موعظته: «في أثناء فيض القلوب هذا، تحرر آلاف الرهبان من الأهواء». وجاء في تعاليم بوذا، إن قوة المحبة تروّض حتى الحيوانات المتوحشة. وليس هذا مجرد تعبير مجازي. فقد نجح بوذا فعلاً أن يؤثر في الحيوانات «بروح المحبة». فتوقف الفيل رافعاً خرطومه، وصار منذئذٍ حيواناً أليفاً. وعلى هذا شاع بيت الشعر الذي يقول: «ما أكثر الذين يروّضون بالعصا، والخطاف، والسوط؛ أما القديس العظيم فقد روّض الفيل بغير عصا، من غير سلاح». وتتلخص صيغة الرقي ضد الحيوانات المتوحشة «خاصة الثعابين السامة»، في أن الراقي يؤكد أنه يحب الكائنات كلها: الزاحفة، وذات الطرفين، والأربعة أطراف، وكثيرات الأرجل.

وبما أن المحبة هي قاعدة التعاليم، أساس الخلاص، إذن ينبغي بالضرورة الاهتمام بروح المحبة. وقد قالت الميتاسوتاسوتا نيباتا في هذا الشأن: «كما تحفظ الأم لابنها، ابنها الوحيد حياته، كذلك يجب إبداء محبة لا حدود لها، لكل الكائنات. ينبغي إظهار محبة لا متناهية تجاه العالم كله، تجاه ما هو سام وما هو وضيع، تجاه من يتساوى معنا، محبة بلا حدود، بلا عداوة، بلا منافسة. ويجب على الإنسان أن يظهر مثل هذا الميل واقفاً، أو سائراً، أو جالساً، أو مستلقياً، أو في أي

وضع كان. فهذه هي التي تدعى الحياة في الإله». وتتشكل الحياة في الإله من: «أربعة لا تقاس»: المحبة، والرحمة، والمشاركة الودية، والسكينة. لكن المحبة هي مصدر هذه الثلاث الأخيرة. ومعنى هذا أن محبة القريب أسمى من كل أعمال البر الأخرى. ولا يمكن أن تحل محلها أي قرابين، أو صلوات، أو شعائر، أو أي شكليات كانت. إن محبة القريب تعني الكثير الكثير بالنسبة للبوذية. إنها تعني أن تذوب في محبتك له، كما قال الراهب أنورودها الذي كان يعيش مع راهبين آخرين، إذ سأله بوذا كيف يعيشون معاً؟ «إننا نعيش يا سيدي معاً بوفاق، من غير نزاع، بسلام، وينظر واحدنا إلى الآخر بود. وأنا أرى يا سيدي أنني رابح وسعيد بعيشي مع هذين الكاهنين. لقد ظهرت في داخلي يا سيدي محبة فعّالة (!) نحو هذين الجليلين، محبة ملء يديّ، ولساني، وقلبي، محبة علنية ومكنونة. وتراودني الفكرة التالية أحياناً يا سيدي: ألا يمكنني أن أقمع إرادتي، وأسلك وفق إرادتي هذين الجليلين؟ لقد سحقت إرادتي يا سيدي، وأنا أعيش الآن بإرادتهما. لأنه إذا كانت أجسادنا مختلفة يا سيدي، فإن لنا كما أرى قلباً واحداً». وذلك هو جوهر المحبة الفعالة: قلبك وقلب من تحب واحد. وسمع بوذا الإجابة عينها عن سؤاله هذا عينه، من الراهبين الآخرين. وتلك هي قاعدة الديانة البوذية، القاعدة التي تعد الأساس الرئيس، وتفوق من حيث الأهمية القرابين، والطقوس، والصلوات، وأعمال البر الأخرى. وإذا ما أدركت لب هذا، فإنه يمكنك عندئذٍ أن تعي أن البوذية لا تهتم بالأخلاق البسيطة، وقواعد السلوك والعيش المشترك، بل بهذه المحبة التي كلأت كل شيء. فقد جاء في الجاماباداً: «نحن نريد أن نعيش سعداء، من غير كره بين المتخاصمين؛ نحن نريد أن نعيش من غير كره بين الذين يكرهوننا». «اقهر الغضب بالرضى، واقهر الشر بالخير، والبخيل بالعطاء، والكذاب بالصدق». «إن العداء لا يهدئه العداء في هذا العالم؛ ليس بالعداوة تقهر العداء، ذلك هو القانون الأزلي». إذاً، البوذية تعلمنا أن نصنع الخير لمن يكرهنا. لذلك غدت ديانة عالمية، إلى جانب المسيحية (أحبوا أعداءكم).

وغني عن البيان أنه ثمَّة تشابه واضح بين هذه الوصايا، التي سيقت للمؤمنين الذين يعتنقون البوذية، والوصايا التي سيقت للمؤمنين المسيحيين، ولكن بدلاً عن الصيغة المسيحية المختصرة: «لا تقتل»، تقول الجاميكاسوتا سوتانيياتا: «يجب عليك ألا تقتل، وألا ترغم أحداً على قتل أي كائن حي، وألا تحبذ عندما يقتل الآخرون؛ إنما عليك أن تحذر من أن تسبب أي أذى للكائنات سواء كانت قوية، أو تلك التي ترتجف فرقاً». إذاً، حسب تعاليم بوذا، لا يطال الإثم من يقتل فقط، بل من يأمر بالقتل أيضاً. ويشارك في الإثم أولئك الذين يشهدون القتل أو يحرضون عليه، حتى لو كان بطريق غير مباشرة. ويجري الحديث في غضون ذلك عن قتل أي كائن حي، وليس عن قتل الإنسان فقط. وتبعاً لهذا يغدو موقف البوذيين من الحرب، والصيد، والذبائح الحيوانية، بديهياً. فالإله هو الذي منح الحياة، وله وحده حق التصرف بها. وعندما يأخذ الإنسان هذا الحق لنفسه، فإنه

يرتكب بذلك إثماً عظيماً، فهو يأثم ضد الإله، وضد القوانين التي تدير شؤون الطبيعة. ولم تقف البوذية من هذا الفهم لوصية «لا تقتل»، موقفاً إعلانياً فقط، إنما كرسته في الحياة العملية. فأول إرادة ملكية أصدرها الملك آشوكي بريادارشين، أعلنت: «هنا في مملكتي يحرم القتل أو تقديم أي حيوان ذبيحة، ولا تقام أي ولائم. لأن الملك بريادارشين حبيب الآلهة يرى في الولائم ضرراً كبيراً. بيد أن هناك كثيراً من الأعياد، التي يحبّذها حبيب الآلهة بريادارشين. لقد كانوا ينحرون آلاف الحيوانات من قبل، لإعداد طعام مائدة حبيب الآلهة بريادارشين، أما الآن، بعد صدور هذه الإرادة الملكية، لن ينحروا سوى ثلاثة حيوانات: طاووسين وغزالاً واحداً، وحتى الغزال ليس دائماً. وسوف نتوقف مستقبلاً عن قتل هذه الحيوانات الثلاثة». وأعلن الملك في إرادته الملكية الثالثة عشرة، أسفه العميق للفظائع التي ارتكبت في مملكته من قبل.

وتدعو الوصية البوذية الأولى إلى الرأفة بالكائنات الحية. فقد أعلن المرسوم الثاني الذي أصدره الملك أتوكي: «في كل مكان من دولة حبيب الآلهة بريادارشين، وعند جيرانه... أمر حبيب الآلهة، الملك بريادارشين، أن يقام في كل مكان نوعان من المراكز العلاجية: مركز لعلاج الناس، وآخر لعلاج الحيوانات. وحيث لا توجد أعشاب تنفع الناس والحيوانات، أمر بالحصول عليها وزراعتها. وكذلك الأمر إذا لم يكن ثمَّة جذور وثمار، أمر بالحصول عليها وزراعتها. كما أمر أن تزرع الأشجار، وتحفر الآبار على طول الطرقات ليفيد منها البشر والحيوانات».

ومن حيث المبدأ، كان ينبغي أن تنسحب محبة القريب في البوذية، على الحيوانات أيضاً. فالإنسان والحيوان حلقتان في سلسلة الكون الواحدة، متماثلتان في الحقوق. وليس في هذه السلسلة أي حلقة لا لزوم لها، أو أقل أهمية من الأخرى. ويجب ألا يستغل الإنسان بعض المزايا التي يمتلكها، لكي يتعامل مع الحيوانات على هواه. فلم تمنح الحيوانات للإنسان لكي يستخدمها من غير رقيب، بل إن الإله خلق الإنسان وخلق الحيوان على حد سواء. وللفريقين الأهمية عينها بالنسبة لعمل الآلية الكونية ككل.

إن هذا التأويل العريض العميق لمحبة القريب، يجعل البوذيين ينظرون نظرة خاصة إلى الآخر، إلى أتباع الديانات الأخرى. فالبوذية لا تدعو كما يدعو الإسلام مثلاً، إلى رد الطعنة بالطعنة[1]. فمحمد بارك القتال دفاعاً عن النفس، أي

١- من غير المفهوم لماذا يتجاهل المؤلفان هنا دعوة اليهودية الشهيرة: «العين بالعين والسن بالسن». واليهودية كما هو معروف سبقت الإسلام بأكثر من ألف وخمسمئة عام. - المترجم.

بارك الحرب. وغالباً ما استغل المسلمون هذه المباركة لنشر الإسلام بالحديد والنار. أما البوذية فلا تقر حق استخدام القوة في أي حال من الأحوال. ويرى كثير من المؤرخين أن هذا بالذات كان السبب وراء نجاح الإسلام في إبعاد البوذية. ومع ذلك فإننا لا نملك إلا أن ننحني أمام وصية البوذية هذه. فمجتمعنا رأى أن المحبة يجب أن تكون بالكلمات. ولكنها في حقيقة الأمر ليست محبة، بل صراعاً وحسب، صراعاً مقدساً وخفياً، صراعاً ضد القريب والبعيد. وما الذي أفضى إليه هذا الصراع؟ إلى مجتمع من غير أساس، ومثله مثل البيت الذي لا أساس له، فإن ذلك المجتمع كان مجتمعاً عاجزاً عن الثبات طويلاً. ولذلك انهار. فالصراع الفكري في مجتمعنا كان مليئاً بما يناقض التسامح، الذي بشر به البوذيون وحققوه في مجتمعهم. فقد أعلن المرسوم الثاني عشر الذي أصدره أتوكي: «إن حبيب الآلهة، الملك بريادارشين يحترم المعاشر الدينية كلها، الجوّالة منها والمستقرة، ويوزع عليها العطاءات، ويعبّر عن احترام متماثل لجميعها. ولكن حبيب الآلهة لا يولي أهمية للعطاءات وإظهار الاحترام، بقدر ما يهتم لازدهار خصوصية كل معشر. فازدهار خصوصيات المعاشر الدينية كلها متنوع، ولكن الأساس ينبغي أن يقوم في الحذر عندما تتحدث، فلا تبالغ في مديح خصوصية معشرك الديني، وألا تحط من قدر خصوصيات المعاشر الأخرى من غير أن تكون لديك أسس راسخة لذلك، ويجب في كل ظرف مناسب أن تظهر احترامك للديانات الأخرى، ومن يسلك عكس ذلك، فإنه يضرّ بدينه، ويفعل الشر للديانات الأخرى. لأن من يمدح دينه دوماً، ويذمّ الديانات الأخرى ظناً منه أنه يرفع بذلك من شأن دينه، إنما هو يحمل له في واقع الأمر أذى كبيراً. فاتحاد الواحد في فعل الخير، يجمّ كل تعاليم الآخر عن طيب خاطر».

وتقول الوصية البوذية الثانية: «يجب عليك ألا تسرق». وقد جاء في الجاميكاسوتا بهذا الخصوص، ما يلي: «يجب على تلميذ بوذا العاقل ألا يأخذ أي شيء من أي مكان، إذا لم يُعط له، وعليه ألا يطلب من أحد أن يحمل أي شيء، وألا يوافق أن يحمل أحد ما شيئاً ما ليس معطى له. عليه ألا يأخذ أي شيء غير معطى له». لكن لهذه الوصية وجهاً آخر كتب عليه: «أنت يجب أن تعطي!» فالكرم عند البوذيين كالمحبة، يقف على رأس أعمال البرّ كلها، والحقيقة أن الكهنة

الهنود كانوا قد وعظوا بالكرم قبل بوذا، منذ زمن الريغفيدا. فقد ورد في الجاماباداما يلي: «لا يدخل البخلاء عالم الآلهة، والحمقى وحدهم لا يمجدون الكرم. أما الحكيم فإنه يتلذذ بالكرم، وبذلك يغدو سعيداً في هذا العالم». ومن المهم جداً أن يكون العطاء حسب البوذية، عن طيب خاطر وبرحابة صدر. ومن المعروف أيضاً أن المسيحية تقول: إن الرب يحب السخي الذي يعطي. وقالت البوذية، إن من يعطي من غير فرح، وعن غير طيب خاطر، لا يلقى سوى الأذى.

ولا تطلب البوذية من الإنسان أن يحب قريبه ويتقاسم معه رزقه وحسب، وإنما ألا يتردد في بذل حياته فداء للقريب إذا كان ذلك ضرورياً. وجاء في الحوليات أن الملك يجب أن يحظى بأربع خصال: الكرم، والود، والمجاهدة في شؤون الدولة، والإنصاف من غير محاباة، لكن الكرم في المقام الأول. ومن المعروف أن الحكام البوذيين أظهروا كرماً كبيراً في كل الأزمنة. ففي مرسوميّ الأتوك بريادارشيث الثالث والحادي عشر، مديح للصفات الآتية: طاعة الوالدين، والكرم مع الأصدقاء، والأقارب، والبراهمن، والنساك، وعدم قتل الكائنات الحية، والإحجام عن ذمّ أتباع الديانات الأخرى. وقال الملك في المرسوم الثامن، إنه يستقبل في جولاته النساك، والبراهمن، والشيوخ، فيكرمهم ويوزع الذهب عليهم. وحسب المصادر، أن كرم الملكين أناتها بينداديكا، وفيشيكها، كان كرماً أسطورياً لا تزال ذكراه حية حتى يومنا هذا.

وتقول الوصية البوذية الثالثة: «عليك ألا تعيش غير عفيف». وتوضح الدهاميكاسوتا مغزى هذه الوصية على النحو الآتي: «العاقل هو من يتفادى العيش غير العفيف، كما يتفادى كومة حجر تتوهج، وإذا كان عاجزاً عن أن يسلك سلوكاً عفيفاً، فعليه ألا يتطاول على زوجة غيره». فعقاب انتهاك قدسية الزواج ثقيل، وهو واقع حتماً، حتى بعد ولادات كثيرة. وقالت الدهاماباداما عن هذا: «رويداً رويداً، وفي الأحوال كلها، فلتخلّص العقل من الصدأ، كما يفعل الحداد مع الفضة. فعندما يظهر الصدأ على الحديد، فإنه يلتهمه شيئاً فشيئاً؛ وكذلك الأرعن تقوده أفعاله إلى جهنم. وصدأ المرأة هو سلوكها الفاسد، هو لبّ النزاعات الآثمة في هذا العالم والعالم الآخر»، «لا يحقق الأرعن الذي يتآلف مع زوجة الآخر، سوى أربعة أشياء: الإثم، والمضاجعة من غير لذة، والعقاب في هذه الحياة، وجهنم. إنه يقترف معها إثماً، ولا يحقق معها إلا متعة بائسة، لأنهما معاً مليئان بالخوف، وينزل الملك به عقاباً صارماً. ولذلك يجب على الإنسان ألا يتآلف مع زوجة الآخر». وجاء في السوتانيباتا: «من يتآلف مع زوجات أقاربه أو أصدقائه، عنوة أو عن رضا، فهو ملعون».

وتعلن الوصية البوذية الرابعة أنه: «يجب عليك ألا تكذب». وعن هذا تقول الدهاميكاسوتا: «يجب ألا يفتري أحد على الآخر، لا في المحكمة ولا في الاجتماع. وينبغي ألا يلجأ أي كان إلى الكذب، وألا يقره عندما يكذب أحدهم، إنما ينبغي تفادي أي ضرب من ضروب الكذب». وجاء في الكوكالياسوتا: «عندما يولد الإنسان تولد له في فمه فأس يضرب الأحمق بها نفسه، إذ يدير حديثاً رديئاً. ومن يمدح الذي يستحق الذم، أو يذم من يستحق المديح، فإنه يقذف بلسانه كذباً بائساً، ولا يحقق لنفسه بهذا سعادة. وليس للكذب البائس الذي يحققون به ربحاً نقدياً في لعبة النرد أهمية، فالأكثر أهمية بكثير، هو ذاك الكذب البائس الذي يرتكبون الإثم به ضد الآخر الصالح. إن من لا يقول الصدق، ومن يرفض أن يقر بما يكون قد فعله، كلاهما يذهب إلى الجحيم، وسيكون الموقف من هاتين الحالتين بعد الموت واحد. فعندما ينعت أحدهم إنساناً نقياً بريئاً، واصفاً إياه بالسوء، فإن الإثم يعود القهقرى ويقع على الأحمق كالغبار المرمي في وجه الريح». وثمَّة في هذه الوصية كلمات مثل: «أنت ملزم ألا تقول عن قريبك إلا كلاماً طيباً». وهاكم ما قاله بوذا نفسه في هذا الشأن بصدد أحد الرهبان: «إنه تارك الافتراء، كاره النميمة. ما يسمعه هنا لا يقوله هناك، كي لا يفرّق بين هؤلاء، وما يسمعه هناك لا يقوله هنا كي لا يفرّق بين أولئك. فهو يسوّي بين المتخاصمين، ويرسّخ بين المتحدين. الوفاق غبطته، والوفاق فرحه، والوفاق متعته، وهو يقول الكلمات التي تصنع الوفاق. ويحجم عن قول الكلام الفظ، يترك الكلمات الفظة، ولا يقول إلا كلاماً عفيفاً تطرب الإذن لسماعه، كلاماً محبباً يمضي إلى القلب، كلاماً مهذباً ودياً يشرح صدر الآخر» ومن الواضح أن بوذا ينصح البشر كل البشر، وليس الرهبان وحدهم، بمثل هذا السلوك.

ونصّت الوصية البوذية الخامسة على الآتي: «يجب عليك ألا تشرب المشروبات المسكرة». وتقول الدهاميكاسوتا في هذا الصدد: «على من يلتزم بهذا القانون (أي بتعاليم بوذا)، ألا يشرب مشروبات مسكرة، وألا يدعو الآخرين لشربها، وألا يوافق على شربها عندما يشربها الآخرون، لأنه يعرف أن نهاية السكر الجنون. فالحمقى يأثمون وهم سكارى، ويجعلون من الآخرين سكارى. يجب درء هذا الإثم الذي يثير الجنون، ويقود إلى الرعونة، والغبي وحده يرى الأمر حسناً».

هذه هي الوصايا الخمس التي يجب على البوذي أن يلتزم بها. ومن لا يفعل فإنه حسب الدهاماباداً، يقتلع جذوره بيديه.

ثمَّ أضافت البوذية خمس وصايا أخرى للرهبان فقط: لا تأكل في غير الوقت المحدد، لا تشارك في الرقص، والغناء، والموسيقى، والعروض، ولا تستعمل الأكاليل، والعطور، والحلي، ولا تنم على سرير عال واسع، ولا تقبل الذهب والفضة. وينصح المؤمن بأن يلتزم بالوصايا الثلاث الأولى، إذا لم يكن التزاماً كاملاً، ففي أيام معينة في أقل تقدير. وهذه الأيام، هي في المقام الأول، أيام

الأوبافاستها التي توافق أيام الآحاد عندنا. كما ينصح المؤمن بالتقيّد بهذه الوصايا الثلاث في أيام انتصاف القمر، وظهور الهلال، وكذلك في كل ثامن يوم بعد انتصاف القمر وظهور الهلال. فالأيام المذكورة ليست ملائمة حسب الشروط الكونية، لصحة الإنسان (تظهر في الأيام المعنية شواذات حركة الجاذبية). ولذلك ينصح الناس بعدم الإثقال على الجسم في الأيام المعنية، وعلى وجه العموم، فإنه من المفضل أن يستريح الجسم من أعبائه يوماً واحداً كل أسبوع. وتدعى هذه الأيام «أيام الصوم». وقبل البوذية، كان يوم الصوم يسبق مباشرة يوم قربان السوما الكبير. ولما جاءت البوذية ألغت الذبائح، وزامنت أيام الصوم بذكاء واضح، مع الشروط غير الملائمة المرتبطة بشواذات حركة الجاذبية.

في هذه الأيام المتميزة، أيام أوبافاستها، التي تدعى في البوذية أيام التوبة، يرتدي المؤمنون ملابس احتفالية، ويمتنعون عن تأدية أي أعمال، وينصرفون عن المباهج الدنيوية. فيمضون إلى الكاهن، ويعلنون له أنهم سوف يلتزمون اليوم بالوصايا الثماني كاملة.

لقد حذر المسيح يوماً من أن من يخطئ بفكره، فهو خاطئ في الواقع الفعلي. فالإنسان الطاهر، هو من يأثم لا بفكره، ولا بقوله، ولا بفعله. وقد قسمت البوذية آثام الإنسان بوضوح، وفق هذه العلامة. فآثام الفكر هي: الأثرة، والحقد، والميل نحو الشك. وآثام القول هي: الكذب، والنميمة، واللعن، والثرثرة التي لا طائل منها. وآثام الفعل هي: القتل، والسرقة، والعلاقة الجنسية المحرمة. وآثام هذه الفئات الثلاث، هي عشرة آثام بالتمام.

ولكن الدستور الأخلاقي البوذي ليس متحجراً لا يصلح إلا لمقطع زمني بعينه. فحسب رأي المتخصصين أنه «مكلوء بالحماس الإنساني». وكان هذا الدستور قد عرض كاملاً في السيغالوفاداسوتا ديغهانيكاي. ويضبط هذا الدستور، العلاقة بين الوالدين والأبناء، وبين المعلم والتلاميذ، وبين الزوج والزوجة، وبين السيد والخادم، وبين الأصدقاء، وبين المؤمنين والرهبان. وحدد الدستور بدقة ووضوح كل هذه العلاقات وسواها من العلاقات الأخرى. وها نحن نسوق هنا بعض نصوص هذا الدستور. فعن العلاقة بين الوالدين والأبناء، يقول النص: «يجب على الابن أن يظهر احترامه لوالديه في خمسة ميادين. عليه أن يقول: سوف أطعمهما كما أطعماني، سوف أعمل من أجلهما، سوف أواصل سلالتي، سأشارك في ملكية إرثي، سوف أقيم على واجبهما بعد أن يتوفيا». وعلى الوالدين بدورهما، أن يظهر محبتهما لابنهما في ميادين خمسة: «أن يمنعاه عن اقتراف الإثم، وأن يرشداه إلى العمل الصالح، أن يعلّماه شيئاً ما ينتفع به في حياته، أن يجدا له زوجة صالحة، أن يتركا له تركة». وعن العلاقات بين السادة والعبيد، نص الدستور على ما يلي: «يجب على السيد أن يبدي اهتمامه بخدمه في خمسة ميادين: «أن يكلفهم بأعمالهم كل حسب قدرته، أن يطعمهم ويكافئهم، أن يعتني بالمرضى منهم، أن يمنحهم الراحة وقت الضرورة. وعلى الخدم بدورهم أن

يظهروا محبتهم لسيدهم في خمسة ميادين: أن ينهضوا صباحاً قبل أن ينهض، أن يخلدوا إلى النوم بعد أن يخلد هو إليه، أن يرضوا بما يقدمه لهم، أن يؤدوا أعمالهم على أحسن وجه، أن يقولوا فيه قولاً حسناً». وتقول الخاتمة: «إن الكرم، والكلام اللطيف، والمخاطبة الودية، وإنكار الذات في الموقف تجاه الكائنات كلها في كل مكان يتطلب الأمر فيه مثل هذا الموقف، هي صفات بالنسبة للعالم كالصرة بالنسبة للدولاب. ولو لم تكن هذه الصفات موجودة، لما حظي الأب أو الأم باحترام أبنائهما. ولذلك ترى الأذكياء يبدون الاهتمام كله بهذه الصفات، يباركونها ويمجدونها».

إن قارئنا الكريم يذكر إننا بدأنا عرضنا لتعاليم بوذا، من اللحظة الرئيسة فيها، أي عدم اعتراف بوذا بوجود إله واحد، ومهادنته لفكرة وجود كثرة من الآلهة الذين كانوا أدنى مقاماً منه نفسه. ومع أن هذه الترّهة تسقط تلقائياً لحظة يعترف بوذا بوجود الخطيئة (ليس بمقدور أحد أن يحدد ما هي الخطيئة، الإثم، سوى الإله الواحد الأوحد)، إلا أنه ترك أتباعه من غير صلاة يرفعونها لإله؛ فليس ثمَّة من ترفع الصلوات إليه، إنما هناك كثرة من الآلهة الذين لا يستحقون ذلك، ولا يوجد حسب بوذا إله واحد. أما الصلاة لبوذا عينه، فهي وفق تعاليمه، أمر لا جدوى منه: لقد انتقل إلى النيرفانا، ولم يعد موجوداً. ونحن لا يتبقى لنا سوى أن نبدي أسفنا لأنه ليس لدى البوذيين إله يصلوا له. ونأسف كذلك لأن بوذا عدَّ نفسه أسمى من الآلهة، وسلب المؤمنين مثل هذه الوسيلة للإصلاح، والتوبة، وإبداء المحبة اللامتناهية التي تتمثل في الصلاة الصادقة المرفوعة إلى خالق الكون الكلي القدرة، إلى خالق كل منا، إلى أبينا. كيف يمكن أن يعيش المرء من غير أن يقرأ كل يوم بمحبة وامتنان: «أبانا الذي!». لم يوص بوذا بأن يصلى له، لكنه لم يبخل على نفسه بالصفات. وهاكم بعضاً منها، تلك التي اندرجت في عهد الطالب الجديد لطريق القداسة. فعلى هذا أن يقول عن بوذا: «إنه هو السامي، المقدس، الكامل الصحوة، مالك المعرفة والسلوك الأخلاقي في الحياة، الكامل، المتنبئ، الأعظم، مروض الثيران البشرية، معلم الآلهة والبشر، بوذا الرب. فليتبارك قانون الرب (أي قانون بوذا...)». والكلمات الأكثر تواضعاً من كل ما قيل هنا، هي «معلم الآلهة والبشر!» وقيل عن بوذا في النصوص القديمة: «ليس له مثيل بين الزواحف، وذوات الطرفين، والأربعة، ولا في عالم الأشكال، ولا في عالم الهلاميات، ولا بين الآلهة، ولا بين البراهمن. ولا يمكن أن تقارن مليارات البراتيكا بوذا مجرد مقارنة ببوذا الكامل. ولا يمكن لأي كان أن يقيس عظمته ومجده. وإذا ما كان لأحد ألف رأس، وفي كل رأس مئة فم، وفي كل فم مئة لسان، فإن قرناً كونياً كاملاً لا يكفيه ليعد صفات بوذا وحده...». وعلى هذا النحو لا يبقى لنا أي شيء نقوله، فالشرق هو الشرق. لقد ظهر بوذا، ولم يبقى هناك مكان للإله الواحد.

ما قاله بوذا عن الأخلاق

فلندرس الآن بالتفصيل موضوعات بوذا الأخلاقية ووصاياه.

الوصايا الخمس الأساسية:

1- خذ بوصية الإحجام عن القتل.
2- خذ بوصية الإحجام عن السرقة.
3- خذ بوصية الإحجام عن الزنى.
4- خذ بوصية الإحجام عن الكذب.
5- خذ بوصية الإحجام عن المشروبات المسكرة.

وصايا بوذا:

1- لا تقتل.
2- لا تسرق.
3- لا تزنِ.
4- لا تكذب.
5- لا تشِ.
6- لا تقل قولاً فظاً.
7- لا تشتم.
8- لا تتطاول على ملكية الغير.
9- لا تكره.
10- فكر بتقى.

الأعمال الفاضلة:

1- اصنع الإحسان مع من يستحق.
2- راع وصية السلوك الأخلاقي.
3- ازرع النوايا الطيبة.
4- اصنع المعروف مع الآخرين.
5- احترم والديك وكبار السن، واعتن بهم.
6- قاسم الآخرين مناقبك.
7- اقبل المناقب التي يعطيها الآخرون لك.
8- بشر بالتعاليم الصالحة.

احذر ثلاثاً:

1- هل يعقل أنك لم تفكر يوماً بأنك خاضع لفعل الشيخوخة، وأنك عاجز عن تفاديها؟
2- هل يعقل أنك لم تفكر يوماً بأنك معرض للمرض كغيرك، وأنك لا تستطيع أن تتفادى ذلك؟
3- أيعقل إنك لم تفكر يوماً بأنك سوف تموت، وأنك عاجز عن الخلاص من الموت؟

لقد صاغ بوذا في موعظته الأولى المبادئ الأساسية لتعاليمه (لديانته).

لا يبحث بوذا عن الخلاص في التنسك، ولكن لا ينبغي لهذا السبب أن تظنوا أنه يستغرق في الملذات، ويعيش عيشة باذخة. لقد عثر بوذا على «الطريق الوسط».

فلا الامتناع عن أكل الأسماك واللحوم، ولا التجوّل عارياً، ولا حلاقة شعر الرأس، ولا إطلاق الشعر مشعثاً، ولا ارتداء الثياب الخشنة، ولا التلطخ بالأوساخ، ولا تقديم القرابين لأغني، يطهر الإنسان إذا لم يكن متحرراً من قيود الضلال.

إن قراءة الفيدات، وتقديم التقدمات للكهنة، والذبائح للآلهة، وترويض الجسد بالحر أو البرد، وكثرة الزهد، هذه التي تُؤدى كلها في سبيل بلوغ الخلود، لا تطهر الإنسان إذا لم يكن متحرراً من الضلال.

ليست وجبة اللحم هي التي تدنس، بل الغضب، والسكر، والتعنّت، والتعصب، والكذب، ومديح الذات، واحتقار الآخر، والغطرسة، والنوايا الشريرة، هي التي تدنس الإنسان.

اسمحوا لي أن أعلّمكم الطريق الوسط، التي تمر متجاوزة الشططين معاً. فعن طريق الآلام يخلق المؤمن المنهك الفوضى في ذهنه، فينتج أفكاراً مختلفة. ولا يفضي قمع الذات حتى إلى المعرفة الدنيوية؛ وهي أقل بكثير من الضروري لتحقيق النصر على الأحاسيس!

إن من يملأ قنديله بالماء يعجز عن تبديد الظلام، ومن يحاول أن يشعل قنديل النار بحطب عفن، سيمنى بالفشل.

فقهر الجسد لا فائدة منه، إنه بطلان وضنى، وكيف يمكن لأي كان أن يتحرر من أنانيته بحياة بائسة إذا لم يكن قد نجح بإطفاء نار الرغبات؟

إن كل ترويض باطل ما دامت الأنانية باقية، وهي تواصل اختبارات الجذب إلى المتع الدنيوية والمتع السماوية. ولكن من خبت فيه الأنانية الذاتية، يكون قد تحرر من الرغبات، ولن يتمنى لا رغبات دنيوية، ولا متع سماوية، ولن يدنسه إشباع ضروریاته الطبيعية، فليأكل ويشرب حسب ما يتطلبه جسمه.

فالماء يحيط بزهرة اللوتس، لكنه لا يبلل أوراقها. ومن جهة أخرى، إن حساسية الأنواع كلها تسلب القوى. فالإنسان الحساس عبد أهوائه، أما الباحث عن المتع فهو سافل وفظ. ولكن إشباع الضروريات الطبيعية للعيش، لا يعد شراً. فالمحافظة على الجسد سليماً معافى، هو واجب مفروض، وإلا سوف نكون عاجزين عن تنظيم شؤون قنديل الحكمة، ولن نستطيع أن نحافظ على عقلنا قوياً وصافياً.

أما قواعد دوران دولاب القانون الأسمى، التي وضعها بوذا فهي (يقال إنه هو من عيّن الدوران):

إن إبر الدولاب هي مبادئ السلوك النقي، والعدالة هي تماثل أطوالها، والحكمة إطارها، والتواضع والتفكير العميق هما الإبرة التي يثبّت فيها محور الحقيقة.

إن من يعي وجود المعاناة، وأسبابها، ووسائل معالجتها ووضع حد لها، يعي في الآن عينه الحقائق النبيلة الأربع، وهو يسير على الطريق الصحيحة. وسوف تكون الرؤى السديدة مشاعل تنير طريقه. والنوايا الطيبة مرشده، والكلمات الصادقة منازل في طريقه. وسوف تجدد قواه، الوسيلة القويمة لكسب موارد عيشه. وستكون الجهود النبيلة خطواته، والأفكار القويمة تنفسه، وتتعقب السكينة آثار خطاه.

إن كل ما أُنشئ سوف ينهار ثانية. ولذلك فإن كل قلقك على نفسك ضرب من العبث. إنه كالسراب، وكل الرزايا التي تنتمي إليه عابرة، فهي سوف تختفي كما يختفي الكابوس، عندما يصحو النائم.

إن كل صاح متحرر من الخوف، وهو يعرف بطلان مساعيه الأنانية كلها، وكذلك آلامه.

مغتبط من تجاوز أنانيته كلها، مغتبط من حقق السلام، مغتبط من وجد الحقيقة. فالحقيقة عظيمة وحلوة الطعم، إنها قادرة على أن تحررك من الشر. وليس في الكون خلاص آخر سوى الحقيقة.

كن مؤمناً بالحقيقة، حتى لو كنت عاجزاً عن إدراكها، حتى لو أحسست حلاوتها مرارة، حتى لو أردت تفاديها في بادئ الأمر، آمن بالحقيقة. إن الحقيقة تكون أعظم عندما تكون هي نفسها، وليس بمقدور أحد أن يغيّرها، أو يحسّنها. كن مؤمناً بالحقيقة وعشها.

إن الأخطاء تجعلك تخطئ الطريق، والأوهام تلد المعاناة. إنها تسكر كالكحول، لكن تأثيرها سرعان ما يزول، فتتركك وأنت تحس بالألم والاشمئزاز.

إن الأنا وباء، حلم عابر، أما الحقيقة فهي مثمرة وعظيمة. الحقيقة أزلية. فليس الخلود موجوداً في أي مكان، إلا في الحقيقة، لأن الحقيقة ستبقى دوماً.

إذا قرر الفرد وحيداً أن يخضع للحقيقة، فقد يضعف، وقد يعود القهقرى إلى طريقه القديمة، لذلك كونوا معاً، وليساعد أحدكم الآخر ويثبّت قواه.

كونوا كالأخوة. موحدين في المحبة، موحدين في القداسة، موحدين في سعيكم إلى الحقيقة.

انشروا الحقيقة، وعظوا بالتعاليم في أرجاء الكون كلها، لكي تغدو المخلوقات الحية كلها في آخر المطاف، مواطني مملكة العدالة.

عيشوا حياة مقدسة من أجل قطع دابر المعاناة.

وقال بوذا عن المعاناة:

أنا لا انتظر ثواباً، ولا حتى ولادة أخرى في السموات، ولكني أسعى لخير البشر، أريد أن أعود القهقرى بأولئك الذين يعمهون في ليل الضلال، وأطرد الألم والمعاناة كلها من العالم.

ولكني من أجل هنائي ألاطف الكل وأودّهم، فأنا أحب الود والملاطفة، لأنني أرغب في أن أمهد سبيل السعادة للكائنات الحية كلها.

لا تسبب للآخر ما يمكن أن يكون سبباً لمعاناتك.

التزم طريق الواجب. اظهر الطيبة لأخوتك واعتقهم من الآلام.

فليكن منبوذاً من جميعهم كل من يسبب الألم والأذى للمخلوقات الحية، وكل من لا رحمة في قلبه تجاهها.

إن محبة الخير للكائنات كلها، هو الدين الحقيقي، املؤوا قلوبكم بالمحبة لخير الوجود كله.

لا تدع نفسك تقلق، ولا تدع كلمة الشر تخرج من بين شفتيك، ابق محباً للخير، ودوداً، مليئاً محبة، ولا تضمر الحقد، بل أحط من لا يحب الخير، بالنوايا الطيبة وسعة الصدر النقية من الغضب والكره.

إن السمات التي تميز الدين الحقيقي، هي محبة الخير، والمحبة والصلاح، والطهارة، والنبل، والرحمة.

الكائنات كلها تسعى إلى السعادة، لذلك كونوا رؤوفين مع جميعهم.

فالكره لن يقطع دابر الكره يوماً في هذا العالم، والمحبة وحدها القادر على وضع حد له. إنه ناموس قديم.

إن التسامح وقبول الآخر هما التنسك الأعظم. فمن يرغب في تحقيق سعادته الذاتية، ويتسبب للآخر بالألم، لن يتحرر من الكره، بل سوف يتخبّط أكثر في شباك الكره.

فليزرع محبّة الخير للعالم كله، وُد العقل المتحرر من الكره
والبغضاء، واللامتناهي من فوق ومن تحت، وفي الاتجاهات كلها.
ومثلما تخاطر الأم بحياتها لكي تحمي ابنها الوحيد، كذلك فليفعل
من أدرك الحقيقة، وينمي محبة الخير اللامتناهي نحو الكائنات كلها.
ومن غير أن يعطي أي أفضلية، فليزرع محبة الخير تجاه العالم كله من دون معيار، ومن غير شائبة، ومن غير أن يخالطه أي شعور آخر يصنع تمييزاً.

الإنسان الرحيم القلب محبوب من جميعهم، وصداقته تقدر تقديراً عالياً جداً، قلبه في لحظات الموت مليء سعادة وفرحاً، لأن الندم لا يعذبه، إنه يتلقى زهرة ثوابه التي تفتحت الآن، والثمرة التي طرحتها تلك الزهرة.

لا يمكن أن يتحقق الخلود إلا بأعمال الخير المتواصلة، ولا يتحقق الكمال إلا بأعمال الرحمة والرأفة. فالقلب المحب، هو الضرورة الأكثر إلحاحاً.

وعبّر بوذا عن موقفه من العقل على الوجه الآتي:

العقل بشير كل عمل، وهو الطاقة الأعظم بين طاقات الأحاسيس الأخرى كلها. فالتصورات النسبية كلها تستمد مبدأها من العقل.

والعقل هو السلف المباشر لكل إدراك، وهو العنصر الأكثر دقة بين عناصر الطبيعة الفذة. إن كل وعي بالأشياء يتلقى مبدأه من العقل. والسعادة هي الرفيق التابع لكل من يتحدث ويعمل بعقل نقي.

«إنهم يكرهونني، إنهم لا يفهمونني، إنهم يخدعونني». إن من يحمل مثل هذه الأفكار في عقله، لن يستطيع يوماً أن يتحرر من أسباب الدمار الذاتي.

إن من حقق السيطرة على ذاته، هو بحق فائز أعظم ممن هزم ألفاً من الأعداء، إنه أقوى ألف مرة من ذاك الذي لا يزال عبد أحاسيسه الطبيعية.

فالذي يطوف عقله بحثاً عن المفاتن والعظمة الظاهرية، ويعجز عن السيطرة على أحاسيسه سيطرة تامة، ويأكل طعاماً قذراً، ويتقاعس، وينقصه الخلق القويم، والشجاعة، فسوف تسقطه الجلافة والبلية، كما تنسف العاصفة الشجرة اليابسة.

وكما تنفذ قطرات المطر إلى البيت الذي لا يغطيه سقف جيد، كذلك ينفذ التعنت، والكره، والوهم إلى العقل الذي لا يميل نحو التأمل.

ومن لم ترطب الشهوات عقله، ولم يقهره الكره، ومن يرفض الخير والشر معاً، هو إنسان يقظ لا يعرف الخوف.

إن القلب الأعمه في الضلال، يتسبب للإنسان بأذى أعظم بكثير من الأذى، الذي يسببه له ألد أعدائه.

ومن الصعب جداً حماية العقل القلق الذي لا يستقر على حال، هذا العقل تصعب السيطرة عليه، لكن الإنسان الحكيم يخضعه للنظام، كما يسوي الحرفي الماهر السهم.

فالسيطرة على العقل أمر صعب وشاق، لأن العقل ماكر، متحرك زلق، يحلق في كل مكان، حيث يرغب؛ لكن الإمساك به وقيادته، عمل صالح، لأن العقل الخاضع للسيطرة، هو مرشد إلى السعادة.

ومن عقله قلق ولا يعرف التعاليم النبيلة، وإيمانه متأرجح، فإنه لن يعرف الحكمة الكاملة يوماً.

فالمنعزل بعيداً، والجواب وحيداً، والمتحرر من الجسد، والمستلقي في كهف (مستقر المعرفة)، هو العقل.

إن ما لا يستطيع أن يفعله الأب، ولا الأم، ولا أي شخص آخر من الأقارب، يفعله العقل بطريقة مثلى، فيتفوق بهذا على الإنسان. ومهما كان الأذى الذي يتسبب به أحدهم للآخر، فإن العقل الموجه توجيهاً أحمق، يمكن أن يتسبب بأذى أعظم.

إن ما لا يطبق في الواقع العملي، هو التأمل الفاسد؛ وما ليس أنيقاً، هو الجسد القذر؛ والكسل، هو فساد الأحاسيس؛ والقلق هو فساد العقل.

فالإنسان اليقظ لا يعرف الخوف، لأن عقله خال من الرغبات الشهوانية.

إن الإحجام عن فعل كل شر، والإقدام على فعل كل خير، وتنقية العقل، تلكم هي تعاليم بوذا.

عظّم العقل، وابحث عن الإيمان الصادق بعزيمة صلبة، ولا تنتهك قواعد السلوك القويم، ولا تسمح أن ترتبط سعادتك بالأشياء الخارجية، بل بعقلك أنت.

ما هي «الأنا». يقول بوذا عن هذا:

إن من يعرف طبيعة ذاته، ويفهم كيف تتحرك أحاسيسه، لا يعثر على مكان «الأنا»، وهو بهذا يحقق السكينة المطلقة. إن للعالم فكرة عن «الأنا»، ولكن ذلك يخلق تصوراً كاذباً.

ويرى بعضهم أن «الأنا» تبقى بعد الموت، ويقول بعضهم الآخر، إنها تهلك. لكن هؤلاء وأولئك على خطأ، ويستحق خطؤهم هذا عظيم الأسى.

لأنه إذا قال الناس إن «الأنا» فانية، فمعنى هذا أن ثمارها التي يعملون على جنيها هي ثمار فانية أيضاً، ويوماً ما لن يكون لها وجود. وليس ثمَّة مأثرة في مثل هذا الخلاص من الذات الآثمة.

ومن جهة أخرى، إذا قالوا إن «الأنا» لا تفنى، فإنه ليس بين الحياة والموت سوى شخصية واحدة، ليست مولودة ولا تموت. وإذا كانت «أنا» هؤلاء هكذا، فإنها لا يمكن أن تصير كاملة عبر التصرفات. «فالأنا» الثابتة التي لا تتغير، لا يمكنها أن تتبدل يوماً، لأن الشخصية سوف تكون عندئذٍ سيدة سائدة، ولن يكون ثمَّة مغزى لتحسين الكامل، ولا ضرورة للمطامح الأخلاقية، والسعي إلى الخلاص.

لكننا نرى الآن علامات الفرح والحزن. فأين الثبات؟ إذا لم يكن الذي يؤدي تصرفاتنا، هو «الأنا»، فإن هذه «الأنا» لا وجود لها إذاً، والأفعال ليس وراءها فاعل، والمعرفة ليس لها عارف، والحياة ليس لها سيد.

والآن أصغوا بانتباه. تتلاقى الأحاسيس وموضوعاتها، فيولد من اتصالها الشعور. ويفضي هذا إلى التذكر. وكما تشعل أشعة الشمس النار بالمرآة المقعرة، كذلك يولد من المعرفة الصادرة عن الإحساس والموضوع، ذلك السيد

الذي تدعونه أنتم الذات. فالنبتة تخرج من البذرة، لكن البذرة ليست نبتة، وليس كلاهما واحداً، ومع هذا فإنهما ليسا متغايرين. وهكذا هي ولادة الحياة.

إن من اكتشف أن «الأنا» غير موجودة، يكون قد أجاز بذلك غياب كل رغبة، وكل النوازع الأنانية.

فالبقاء على الإخلاص للأشياء، والجشع، والشهوانية الموروثة كلها عن الوجودات الماضية، هي سبب الآلام، وبطلان هذا العالم.

اعزف عن ميل الروح إلى الطمع الذي يرتبط بأنانيتك، وسوف تبلغ عندئذٍ حالة الصفاء العقلي، التي تحمل إلى الكاملين السلام، والبر، والحكمة.

وإذا كان الإنسان يعرف أن ذاته عزيزة عليه، فإنه ينبغي عليه أن يحمي نفسه جيداً. والإنسان العاقل هو الذي يحافظ على يقظته في أثناء أي من الخفارات الثلاث.

الذات هي ملجأ الذاتية. وأي شيء آخر يمكن أن يكون ملجأً لها؟ إن من يسيطر على ذاته سيطرة تامة، يحظى بملجأ آمن.

لا يُصنع الشر إلا بك أنت، فهو يولد في الذات، وفيها علته، الشر يجلخ المعمورة، كما يجلخ الألماس الحجر الصلب.

فالذاتية هي علة الشر، وهي التي تدنس الإنسان. لكن الشر لا يقطع دابره سوى الذات؛ لأن الإنسان لا يتطهر إلا بذاته. فالنقاء والدنس مرتبطان بذات الإنسان. ولا يمكن أن يطهّر أحدهما الآخر.

وقال بوذا عن الخير والشر:

لقد قال بوذا: يا أصدقائي، ما هو الشر؟

القتل أيها الأصدقاء شر، والسرقة شر، والشغف شر، والثرثرة شر، واعتناق التعاليم الباطلة شر؛ إن هذا كله شر في شر يا أصدقائي.

وما هو جذر الشر يا أصدقائي؟ جذر الشر، هو الرغبة أيها الأصدقاء، والكره جذر الشر أيضاً.

ومن الأفضل أن يبقى فعل الشر غير مفعول؛ لأن عمل الشر يعذب الإنسان بعد أن يأتيه. ولكن من الأحسن أن يؤتى فعل الخير، لأن تحقيقه لا يفضي إلى الندم.

لا تفكر بالشر غير مبال وتقول: «إنه لا يقترب مني». فقطرة الماء المتساقطة سوف تملأ الدورق بالتأكيد. وبالطريق عينها يملأ الأحمق نفسه بالشر.

فكما يتفادى التاجر الطريق الخطرة إذا كان حرسه ضعيفاً وماله كثير، أو كما يتفادى السمّ من يحب الحياة، كذلك ينبغي على الإنسان أن يحذر الشر.

وليس ثمَّة مكان في السماء، أو في وسط المحيط، أو في كهف جبلي يمكن أن يقي الإنسان من نتائج أعمال الشر.

إن أعمال المخلوقات الحية كلها تغدو فاسدة بسبب عشرة عيوب، وإذا ما نجحت في أن تتجاوز هذه العيوب العشرة، فسوف تغدو أعمالك صالحة. وثمَّة ثلاثة عيوب للجسد، وأربعة عيوب للحياة، وثلاثة عيوب للعقل.

وعيوب الجسد، هي القتل، والسرقة، والزنى. وعيوب اللسان، هي الكذب، والنميمة، وإهانة الآخر، والثرثرة الفارغة. وعيوب العقل، هي البخل، والكره، والضلال.

وأنا أعلّمكم أن تتفادوا العيوب العشرة.

1- لا تقتلوا، بل وقّروا الحياة.
2- لا تسرقوا ولا تسلبوا الآخر، بل ساعدوا كل إنسان كي يكون صاحب ثمار عمله.
3- ابتعدوا عن القاذورات، وعيشوا حياة عفيفة.
4- لا تكذبوا، بل كونوا صادقين. قولوا الحقيقة بعقلانية، وشجاعة، وقلب محب.
5- لا تختلقوا إشاعات كاذبة، ولا ترددوها. ولا تنتقدوا، بل الفتوا النظر إلى الجوانب الإيجابية في القريب، لكي يكون بمقدوركم حمايته من الأعداء.
6- لا تشتموا، بل تحدثوا بتواضع ووقار.
7- لا تهدروا الوقت بالهذر، فإما أن تتحدّثوا ضمن الموضوع، أو اصمتوا.
8- لا تتطاولوا على الغريب وتحسدوه، بل افرحوا لنجاحات الآخرين.
9- نقّوا قلوبكم من الحقد والكره، حتى نحو أعدائكم، وتعاملوا بطيب مع الكائنات الحية كلها.
10- حرروا عقولكم من العمه، وجاهدوا لتعرفوا الحقيقة، خاصة عما تكون معرفته ضرورية، لكي لا تصبحوا ضحية الشك والتضليل.

إذا ما اقترف الإنسان إثماً، فليمتنع عن اقترافه مرة أخرى، وليبتعد عن الاستمتاع به، فنتيجة الشر، هي المعاناة.

فلينتصر الإنسان على الغضب بالمحبة، فليهزم الشر بالخير، والشحّ بالكرم، والكذب بالصدق.

إذا ما تحدث الإنسان أو عمل بنوايا شريرة، فإن المعاناة سوف تلاحقه، كما يلاحق الوشم الثور الذي يجر العربة.

تعالوا لنتحقق من نوايانا، ألا نفعل الشر؟ إننا لن نجني إلا ما زرعناه.

إن الآثم يظن أن الإثم طعمه حلو كطعم العسل. فالأحمق الذي يدرك حماقته، هو حكيم في هذا على أقل تقدير. لكن الأحمق الذي يعد نفسه حكيماً، هو أحمق حقيقي.

وقال بوذا عن الرهبان:

إن من عزف عن المآثر، ومن تجاوز العيوب، وكان باراً، وعاش في هذا العالم بعقل، إن هذا يدعى راهباً بحق.

فالكذاب لا يغدو ناسكاً إذا ما قص شعر رأسه، إذ كيف يمكن أن يكون راهباً من تملؤه الرغبات والجشع؟

إن الصمت لا يجعل الوضيع الجاهل حكيماً. ولكن المتعقل الذي يزن الأمور في الميزان، فيقبل الجيّد منها، ويتفادى السيئ؛ لهو حكيم حقاً.

ولذلك ليس الراهب من يطلب الحسنات من الآخرين فقط، لأن الشكليات وحدها لا تصنع رهباناً.

فلا تكن أيها الراهب واثقاً من نفسك، قبل أن تتأكد من أنك أطفأت في نفسك الرغبات الشهوانية. فالدين الأعظم هو إطفاء الرغبة الآثمة. وليكن سلوكك بطريقة تجعل نورك ينير إلى الأمام، لكي تستطيع أنت الذي أضأت العالم، وكرست حياتك للدين والانضباط الديني، أن تلتزم بقواعد الوقار، وتكون مبجلاً، ومحباً ورحباً تجاه معلميك، ومن هم أكبر منك.

إن الراهب الذي ينظر إلى المرأة ويلامسها بصفتها امرأة، ينتهك القَسَم الذي أقسمه، ولا يعود مشايعاً.

وإذا ما تأتّى لك أن تتحدث إلى امرأة، فليكن، ولكن بقلب نقي، وقل بينك وبين نفسك: «أنا راهب، وسأعيش في هذا العالم الآثم نقياً كزهرة اللوتوس، التي لا يلوثها الطين الذي تموت فيه».

وإذا كانت المرأة كبيرة في السن، فعاملها كما لو كانت والدتك، وإذا كانت شابة، عاملها كما لو كانت أختك. وإذا كانت فتية، انظر إليها كما لو كانت ابنتك.

إن قوة الرغبة عند الناس عظيمة، وينبغي الحذر منها، لذلك عاهد نفسك على أن تكون صلباً غيوراً، واستعمل سهام الحكمة.

أيها الراهب حصّن رأسك بخوذة الفكر الصالح، وعزيمة لا تكل، احم نفسك من رغبات خمس.

فالرغبة تلبّد قلب الرجل عندما يفتنه جمال امرأة، فيلفّ الظلام عقله.

إنه لأفضل لك مئة مرة أن تسمل عينيك بحديد محمى حتى الاحمرار؛ من أن تحمل في نفسك نوايا شهوانية دنيئة، أو أن تنظر إلى جسد امرأة برغبة شهوانية.

إن الصلاح هو لجم الجسد، والصلاح هو الإحجام في الكلام، والصلاح هو ردع العقل، والصلاح هو الإحجام في كل شيء. إن الراهب المقسط في كل شيء، هو إنسان حر من الأحزان كلها.

إن من ليس له «أنا، وهذا لي» في كل ما يخص العقل والجسد، ومن لا يأسف على ما لا يملكه، لهو يدعى راهباً بحق.

إن الراهب الذي اعتزل، وتوحّد، وهدأ عقله، واستوعب التعاليم بعمق، يعيش سعادة تفوق سعادة البشر.

فليكن مؤمناً بطريقه وكاملاً في سلوكه، مليئاً سعادة، وبذالك يضع حداً للأحزان.

وكما يطرح الياسمين زهره الذابل، كذلك يجب عليك أن ترمي الرغبات والبغض.

إن الراهب الذي يتحول إلى تعاليم بوذا شاباً، ينير هذا العالم، كما ينير القمر ليلة ظلماء.

وكما يؤذي المنجل اليد التي لا تمسك به بإتقان، كذلك حياة الزهد التي لا تُعاش صحيحة، تقود الإنسان إلى جهنم.

كيف ينبغي أن يكون الواعظ؟ عن هذا يقول بوذا:

عندما أرحل عن هذه الدنيا، ولا يعود بإمكاني أن أرشدكم بالمواعظ الدينية، انتقوا من صفوفكم أفراداً من عائلات صالحة، متنوّرين جيداً، لكي يعظوا بالحقيقة بدلاً عني.

وليرتد هؤلاء زي بوذا، وليتحدثوا في مثوى بوذا، وليشغلوا المنبر الذي كان بوذا يعتليه عندما يعظ.

فثياب بوذا هي أعلى درجات رباطة الجأش، والتسامح. ومثواه هو الرحمة ومحبة الكائنات كلها. ومنبره الذي كان يعظ من فوقه، هو فهم القانون الصالح في تجلياته المعطاة.

ومن واجب الواعظ أن يعظ بالحقيقة بعقل ثابت لا يكلّ. عليه أن يمتلك قوة الإقناع المتجذرة في العفة، ويكون مخلصاً لعهوده، غيوراً عليها.

يجب على الواعظ أن يلتزم الحقيقة، ويكون راسخاً في مواقفه، ويبتعد عن الغرور، ويبحث عن صحبة العظماء. ويبتعد عن الأرعن الخفيف اللاأخلاقي. وإذا ما جاءه الإغراء، فإن عليه أن يفكر ببوذا، وسوف يخرج عندئذٍ منتصراً.

ومن واجبات الواعظ أن يستقبل على الرحب والسعة، كل من يأتي إليه ليستمع إلى التعاليم ويجب ألا يثير وعظه الإحساس بالحيف لدى أحد.

كما ينبغي على الواعظ ألا يميل إلى تسقّط عيوب الآخرين، أو أن يشتم سواه من الدعاة الآخرين. فلا يليق به أن يغلظ بالكلام، أو يستخدم الصيغ الحادة. ويجب عليه ألا يذكر أسماء التلاميذ الآخرين، بهدف تقريعهم أو ذم سلوكهم.

فمن المهم أن يكون الواعظ مليئاً بالحيوية والأمل المشرق، وألا يتزعزع إيمانه وثقته في حتمية النجاح.

ويجب ألا تسعده النزاعات العدائية، وألا يدخل جدالاً لكي يظهر تفوقه فقط، بل ينبغي عليه أن يكون هادئاً وراضياً.

يجب ألا يكن في قلبه أحاسيس عدائية، وألا تخلو نفسه من الرحمة بالكائنات كلها. ولكي يصغي الناس لصوت الحقيقة، يجب على الواعظ أن يدخل عميقاً إلى قلوبهم، وعندما يبدؤون الإصغاء إليه بانتباه وجدية، فإن عليه أن يدرك أنهم على حدود الصحوة.

اقبلوا قانون الحقيقة الصادق، حافظوا عليه، اقرؤوه وأعيدوا قراءته، افهموه، وانشروا فهمه، عظوا به الكائنات كلها، أينما كانت.

ليس بوذا شحيحاً، ولا تكبّله الآراء الباطلة، إنه يعمل على نقل معارف بوذا كاملة إلى كل من لديه الاستعداد والرغبة لقبوله. فاقتدوا به، وكونوا مثله. قلدوه واحذوا حذوه في كرمه بمنحه الحقيقة.

اجمعوا حولكم كل من يحب أن يجمّ كلمات الناموس الصالحة التي تبعث السكينة بالنفس، حرّضوا قليلي الإيمان على قبول الحقيقة، املؤوا قلوبهم فرحاً ومتعة. شجعوهم، وجّهوهم واصعدوا بهم أعلى فأعلى إلى أن يجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام الحقيقة، فيروا روعتها وعظمتها ومجدها اللامتناهي.

لو استمع الإنسان إلى قول واحد بعث السكينة في قلبه، لكان أفضل له بكثير، من ألف كلمة لا نفع منها.

كثرة من البوذا

لقد حاول بوذا أن يبعد الإله الواحد من هذا العالم، لكنه عجز عن معرفة مكانته فيه، لأن تعاليمه لم تسمح له بذلك. فحسب تعاليم بوذا، أن المتنور الكامل يجب أن يبلغ النيرفانا في آخر حياته، وينبغي أن ينتهي وجوده عند هذا الحد، بهذا الشكل أو ذاك. ولذلك يجب أن يسترشد جميعهم بعد موت بوذا، بالقانون الذي رآه، أدركه لحظة الصحوة. وقد قال بوذا عن هذا القانون:

«أنا الآن يا أناندا شيخ عجوز، كهل أكربته السنون،
لي من العمر ثمانون عاماً... عيشوا يا أناندا بطريقة
يكون واحدكم فيها قنديل نفسه، ملجأ نفسه، لا تقتنوا
قناديل أخرى سوى قناديل القانون، لا تتخذوا ملجأً آخر سوى ملجأ القانون».

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق، هو: ما هو هذا القانون؟ من صاغه؟ من أنشأه؟ فبوذا نفسه لم يفهم هذا القانون، لم يدركه إلا لحظة جاءته الصحوة. إذاً فالقانون ثابت مستقر، وينبغي تنفيذه بالضرورة، أما مشرع هذا القانون، فليس له وجود. لقد انتزع بوذا من خارطة العالم الموحدة التي لا تتجزأ، انتزع منها قلبها، الروح الكوني؛ وبذالك يكون قد سلبها قاعدتها، أساسها ومفهوم روح الإنسان فيها. ولكن بوذا لم يكن قادراً على أن ينفي وجود روح الإنسان على وجه العموم، بيد أنه رفض أن تكون ثمَّة روح ثابتة أزلية لا تتغير، روح مختلفة تماماً ومنفصلة عن الجسد. فالروح بالنسبة لبوذا، هي كتلة من العناصر المستقلة المتبدلة أبداً. ويظهر هذا بجلاء، في الحوار الآتي: تطرح الميليندابانها سؤالاً عما إذا كان الإنسان يبقى بعد الموت كما كان في الحياة الدنيا، أم أنه يتبدل؟ وقد طرح ناغاسينا السؤال في الميليندابانها وأجاب عليه، فأكد أن الإنسان بعد الموت لا يبقى كما هو، لكنه لا يتحول إلى آخر. وقال: «أيها الملك العظيم! إذا ما أشعل أحدهم القنديل مثلاً، فهل يبقى القنديل مشتعلاً طول الليل؟». «نعم أيها السيد، يمكن أن يبقى القنديل مشتعلاً طول الليل». «ولكن أيها الملك العظيم! هل الشعلة في أول الليل، هي نفسها في الجزء الثاني منه؟» «كلا أيها السيد». «وهل الشعلة في

الجزء الثاني هي نفسها في الجزء الثالث»؟ «كلا أيها السيد». «وهل كان القنديل غير القنديل في الجزء الأول والثاني، ثمَّ في الثاني والثالث أيها الملك العظيم؟» «كلا أيها السيد، لقد كان النور ينبعث من القنديل عينه طوال الليل». «هكذا تماماً أيها الملك العظيم، تتعاقب أشكال عناصر الوجود واحدها إثر الآخر. يظهر أحدها فيعبر الآخر: من غير بداية ونهاية يعقب واحدها الآخر مباشرة. لا كذاك عينه، ولا كالآخر تقترب كلها من التكوين الأخير للفيجينيانا». وكان بوذا نفسه قد وضّح هذا التبدل على مثال تيار الماء (كما فعل هيراقليط)، أو على مثال الشعلة. وقد ساق المثل التالي: عندما ترهبنت كيساهوتامي، أشعلت شمعداناً في الدير. ولما شاهدت شعلة الشمعدان تتوقد حيناً، وتخبو حيناً آخر، قالت: «هكذا تظهر الكائنات الحية وتعبر، ولكن الذين يبلغون النيرفانا لا يظهرون بعد ذلك أبداً». ثمَّ يروى أن بوذا نفسه ظهر لها، وأكد صدق ما قالت: ويسوق لنا نص آخر (التهيريجاتها) قصة الراهبة باتاتشارا عن بلوغها لحظة الخلاص. وفي ختام القصة قالت باتاتشارا: «حينئذٍ أخذت قنديلاً، وذهبت إلى الدير، فرأيت سريري، واستلقيت عليه. وأخذت إبرة انتزعت بها فتيله. فتحررت روحي مثلما انطفأ القنديل».

وهنا نقترب من عمق مغزى مفهوم «نيرفانا». فالتصور الشائع، هو أن النيرفانا تعني اللاوجود، العدم وحسب. لكن مغزى هذا المفهوم، هو في واقع الأمر أكثر عمقاً بكثير، فتعبير مثل «انطفأ القنديل» ينطق بلغة بالي على النحو التالي: باديبا سيفانيبانا. وتنطق كلمة نيبانا هذه بصيغتها السنسكريتية: نيرفانا. وتتألف هذه الكلمة من البادئة «نيس» (من) التي تتحول قبل الحرف الصوتي إلى «نر»، ومن الجذر «فا»: «ينفخ، يعصف»، واللاحقة «نا». وبذالك يكون المعنى الحرفي لكلمة نيرفانا، هو «المنفوخ عليه»، «المطفأ»، «المخمد». وتتردد هذه الكلمة كثيراً بهذا المعنى في النصوص البوذية. ولكن معنى كلمة نيرفانا هذا ينسحب على إخماد نار الرغبة. وهذا يعني أن النيرفانا لا تعني العدم وحسب. فوفق تعاليم بوذا أن من ينجح في ترويض أهوائه، يدرك وهو على الأرض، حالة السكينة المغبوطة، أي النيرفانا. فالقديس يحقق النيرفانا قبل الموت. وقد قال تهيريجاتهيرا سامكريتا عن تلك الحالة: «أنا لا أرغب في الموت، ولا أرغب في الحياة. أنا أنتظر ساعة موتي كعامل ينتظر أن يتلقى أجره. أنا لا أريد الموت، ولا أريد الحياة. أنا أنتظر ساعتي مليئاً بالوعي والفكر». كما ورد وصف حالة النيرفانا في الدراسات البراهمنية (قبل بوذا). فالنيرفانا عند البوذيين، هي قبل كل شيء، حالة من الطهر وانعدام الآلام. فالراهب المتجول جامبوكهادانا خاطب شاريبوترا بالكلمات الآتية: «غالباً ما يقولون يا أخ شاريبوترا: نيرفانا، نيرفانا! ولكن ما هي النيرفانا؟» فأجاب شاريبوترا: «قمع الأهواء، قتل الآثام، التخلص من العمه، هذا ما تعنيه النيرفانا أيها الأخ». وتصف الجامابادا طريق بلوغ النيرفانا على النحو الآتي: «إذا كنت قد بت لا تثار بعد، إذ كنت قد غدوت كالجرس المتصدع، فأنت بلغت النيرفانا، ولن تدير بعد ذلك أحاديث حمقاء».

وجاء في المصدر البوذي الآخر: السوتانيباتا: «إن من قضى على أهوائه، وتحرر من الغرور، وتجاوز طريق الرغبات كلها، وسيطر على نفسه سيطرة تامة، وبلغ النيرفانا، وكان ثابت الروح، فإنه يسير على الطريق الصحيحة في هذا العالم». ويتضح من هذا كله إنه ثمَّة خلاص في هذه الحياة. والحقيقة أن البوذية لا تنفرد وحدها بهذا القرار، فالنظم الفلسفية الهندية الأخرى تلح بدورها على أن «الخلاص لا يتحقق إلا بمعارف معينة لا يمكن فقدانها بعد اكتسابها». زد إلى هذا أن بوذا أدرج في تعاليمه عن هذه المسألة، ما كان موجوداً قبله في «جيفانموكتي» البراهمن. إن من يحقق الخلاص في حياته الدنيا لن يفقده بعد ذلك أبداً. فلن يأتي بعد أفعالاً قد تؤثر في مستقبلة. بل لن يأتي بأي أفعال، لا صالحة ولا طالحة. ومن تنتهي دورة حياته بالموت، يكون قد تفادى البعث من جديد. بمعنى آخر، إن «من يحقق الخلاص يموت ولا يصحو ثانية». وهذا ما يوضحه الحوار الذي ساقته سوتانيباتا. فمرة كان بوذا في ألافي، إذ توفى فيها أحد الشيوخ: نيغرودهاكابا. وكان هذا معلم فانغيسا. وكان هذا الأخير راغباً جداً في معرفة ما إذا كان معلمه قد حقق النيرفانا أم لا. فسأل بوذا: «ألم تكن حياة النقاء التي عاشها نيغرودهاكابا مجرد عبث لا طائل منه؟ هل بلغ النيرفانا، أم لا وجود لسكانداه بعد؟ فأجابه الرب بوذا: «لقد قمع نيغرودهاكابا توق الاسم والصورة في هذا العالم، قمع تيار ماراس الذي أقام فيه طويلاً؛ لقد تجاوز الميلاد والموت من غير أن يترك لهما أثراً». وعن كونه لن يبعث ثانية، يمكننا أن نعبّر بكلمات أخرى: لم يبق أي أثر لسكانداه. وجاء في نص آخر، إنه لما وضع العجوز الكهل غودهيكا حداً لحياته، قال بوذا: «لقد انتقل غودهيكا إلى النيرفانا بانتصاره على عدوانية الموت؛ ولم يكتسب البعث من جديد، لقد اجتثّ جذر التعطش». وحسب النصوص البوذية أن حالة الميت الذي حقق الخلاص النهائي من الانبعاث، هي النيرفانا الكاملة (بارينيرفانا).

وخبرت المهابارنيباناسوتا عن موت بوذا. فمنذ أن رحل بوذا عن هذا العالم، اقترن اسمه بتعبير النيرفانا الكاملة (البارينيرفانا). بمعنى آخر، إن للنيرفانا مستويين. المستوى الأول، هو الخلاص في الحياة الدنيا، أي النيرفانا. والمستوى الثاني، هو الخلاص من الولادات المتتالية بعد الموت، وهو النيرفانا الكاملة. وغني عن البيان أن مستوى الخلاص الثاني مستحيل من غير المستوى الأول، إذاً، إن الخاتمة المنطقية لتعاليم بوذا، هي الموت، وليس ثمَّة بعث قط، هي انطفاء الحياة نهائياً.

ويستنتج من هذا كله، أنه لا شيء بعد الموت البتة. ولكن هذا العدم منوط بتحقيق الخلاص، الخلاص من انبعاثات جديدة. ويبدو واضحاً أن غاية تعاليم بوذا، هي تهدئة كل الأفكار الباقية في النفس عن الولادات السابقة، وتحطيم ماهية التفكير العقلي، وكل الرغبات، كي يبقى الموت الأبدي، فعند بلوغه النيرفانا الأولى، يعي الإنسان أن ذلك ممكن، ويقتنع بأن ولادته هذه، هي الولادة الأخيرة،

وأنه سيبلغ النيرفانا الكاملة بعد الموت. ولكن على الرغم من أن حالة النيرفانا الأولى لا تبقي على أي أفكار، أو أهواء، أو انفعالات نفسية، إلا أننا نستطيع القول، ولكن بصعوبة كبيرة: إن النيرفانا الأولى هي بالنسبة للإنسان علّة لسعادة فريدة من نوعها: «عالم لا مثيل له، عالم خال من الأحزان، ملجأ أزلي لا يعرفون فيه الألم، مكان ترسم صورته المصادر البوذية بألوان زاهية». وكان هذا التصور قد أفضى فيما بعد إلى نشوء صورة الجنة.

لقد فهم بوذا نيرفاناه فهماً دقيقاً محدداً: الانطفاء بعد الموت ونهاية الانبعاثات كلها، والحقيقة أن هذا التصور عن النيرفانا، لم يكن تصوراً مبتكراً. فقد عرفه أسلاف بوذا، كما عرفه معاصروه (البراهمن والجاينيون، وسواهم من الطوائف الأخرى).

لقد كانت المهمة الأساس لتعاليم بوذا، هي التحرير العملي لأكبر عدد ممكن من الناس، أي إنقاذهم. وكانت هذه المسألة قد عولجت في تعاليم بوذا معالجة مفصلة. فطريق البرّ تتوزع على درجات. والدين الحق هو الدرجة الأولى على طريق البر. والدرجات الخمس التالية، هي: العزيمة الصادقة، والكلمة الصادقة، والعمل الصالح، والحياة الصالحة، والسعي الصادق. ومن الواضح أن هذه الدرجات تتضمن الوصايا الخمس التي سبق الحديث عنها. وتلي هذه الدرجات درجتان، هما: الفكر القويم، والتأمل الصحيح. وبما أن البوذية لا تعترف بوجود إله، لذلك ليس لديها صلوات. والحقيقة أنه ثمَّة بعض صيغ انتحال الدين التي هي عبارة عن مدائح وتمجيد لبوذا نفسه وللطائفة التي أسسها. ولكن استعيض عن الصلوات إلى حد ما، بالاستغراق في التأمل. وقد كان من الضروري تعلّم تقنية هذا الاستغراق، وعلى مدى طويل. ولذلك لم يكن الاستغراق متاحاً للمؤمنين كلهم، فمعرفة ممارسته كانت بمتناول الرهبان فقط. لكن هؤلاء كانوا قلة، ولذلك فإن المشكلة لم تجد حلاً كاملاً عبر هذه الطريقة. بمعنى آخر، لقد بقي أكثر المؤمنين عاجزاً عن ممارسة التأمل.

والحقيقة أننا عندما أنكرنا على البوذية وجود الصلوات فيها، فإننا بهذا جانبنا الحقيقة بعض المجانبة؛ لأنه ثمَّة فيها صلاة واحدة على أي حال، هي صلاة تدعي صفة الصلاة المقدسة. وهي «أوم ماني نادمي هوم». أي «نعم أنت جوهرة اللوتس آمين». وكتب مؤرخ البوذية عن هذه الصلاة يقول: «إن هذه الصلاة، هي الصلاة الوحيدة تقريباً، التي يعرفها الإنسان العادي في التيبيت ومنغوليا، عن البوذية. وهذه المقاطع الستة، هي أول ما يتمتم به الطفل، وآخر ما ينطق به المحتضر. كما يتمتم بها السائر في الطريق، والراعي مع قطيعه، والمرأة وهي تؤدي أعمال المنزل، والراهب في كل أطوار تأمله، أي عندما لا يفعل شيئاً. وهي في الوقت نفسه الهتاف العسكري، وصيحة النصر». ونحن يمكننا أن نقرأ هذه الصلاة في معابد اللاما كلها، مكتوبة بالسنسكريتية في غالب الأحيان. إنها حاضرة في كل مكان تسيطر فيه اللامائية. ويكتبونها أيضاً على الرايات، وحقول أوراق الكتب، وعلى الصخور، والأشجار، والجدران «فليس هناك صلاة تكتب

أو تتلا أكثر من هذه. ويبالغون كثيراً في تمجيدها بصفتها تستوعب الدين كله في كلماتها الست هذه، وتتضمن الحكمة كلها، فهم يؤوّلونها تأويلاً صوفياً». ونحن لا يسعنا إلا أن نعبّر عن حزننا لحرمان شعب من نعمة الكلام، التي يأتي كل شيء للإنسان عبرها. فالحقيقة أنه « فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ...»[1] . ومن المفيد أن نتذكر الآن مزامير داود وسليمان، وصلوات محمد ذات الإيقاع، وكل تراتيل الإنجيل. إن هذا يجعلنا نحس بالأسف لأن البوذية سلبت نفسها الكلمة. ولكن لا غرابة في هذا! فقد سلبت البوذية نفسها الإله. «...وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهَ!».[2]

لقد أعد نظام الاستغراق في التأمل الذي كان يجب أن يحل بدلاً من الصلوات، إعداداً دقيقاً مفصلاً. فقد أُبرزت فيه أربعة مستويات من الاستغراق الديني. لقد كان يجب أن يمارس الاستغراق في مكان هادئ منعزل. فيجلس الراهب وساقاه مضمومتان مثنيتان، «جسده مستقيم، وجهه محاط بهالة من التفكير النشط». فالراهب يبحث عن «نقطة التركيز»، مكثفاً روحه في نقطة واحدة. وللمثال يسوقون ما حصل للراهب الذي أراد أن يستغرق في التأمل؛ إذ جلس هذا على ضفة نهر أتشيرفاتي، وأخذ يراقب ظهور الأمواج واختفاءها. وقد رأى الراهب في هذا مثالاً لظهور جسد الإنسان واندثاره. فاتخذ من هذه الفكرة «نقطة تركيز». وفي مثل هذه الحالة من الاستغراق في الفكرة، بدأت روح الراهب تمتلئ بالصفاء شيئاً فشيئاً. وأخذت الأهواء تتلاشى، بيد أن الروح كانت لا تزال تحت وطأة حالة التحديق في «نقطة التركيز» وسير المحاكمة العقلية. أما حينما تتحرر الروح من المحاكمة العقلية والتحديق، وتبلغ درجة الثقة، فعندئذٍ تبدأ الدرجة الثانية من الاستغراق الذهني. فتحقق حينئذٍ الصحوة والإلهام. وإذ يختفي الإلهام، والسعادة، والألم، تبدأ الدرجة الثالثة من الاستغراق. وعند الدرجة الرابعة يتوقف التنفس، ويغدو الإنسان لا مبالياً تجاه كل شيء. وفي هذه الحالة من التغير يكتسب الإنسان إمكانية استقاء المعلومات من حقل الإعلام الكوني (إذا جاز لنا أن نستخدم المصطلحات المعاصرة)، ويستطيع أن يغوص إلى الماضي ويرى ما فيه، وإلى المستقبل ويرى ما يحمل. وترى البوذية، أن الراهب الذي يحقق الدرجة الرابعة من

١- العهد الجديد، إنجيل يوحنا: 1: 1.
٢- العهد الجديد، إنجيل يوحنا: 1: 1.

الاستغراق الذهني، يغدو على مقربة من النيرفانا. ثمَّ اعتقدوا بعد ذلك أن الإنسان عندما يحقق درجة الاستغراق الرابعة، يولد من جديد في واحدة من السموات.

لقد وصفوا غبطة الاستغراق في العصور كلها، بكثير من الدهشة. ففي التهيراغاتها، وصفها الكهل بهوتا على النحو الآتي: «عندما يقصف الرعد في السماء ويدوي هزيمه، وتملأ تيارات المطر الطريق الكونية كلها، ويترك الراهب نفسه لحالة الاستغراق الذهني في داخل كهف جبلي، فليس ثمَّة متعة تقارب هذه بالنسبة إليه. وفي الليل وحيداً في الغابة، والمطر ينهمر، والوحوش تزأر، يسلّم الراهب روحه لحالة الاستغراق في جوف الكهف: ليس هناك متعة أعظم بالنسبة إليه، من هذه المتعة».

ووصف بوذا تمارين التنفس التي تؤدى بهدف الاستغراق، أنها بديعة وغنية بالفرح والحبور. وكان بوذا قد اقتبس عنصر الاستغراق هذا، وأشياء أخرى كثيرة، عن تعاليم اليوغا. وحسب تعاليم بوذا أن للبر أربعة مستويات، «أربع طرق». المستوى الأول، هو الستروتاياباانا. أي أولئك الذين «بلغوا المجرى»، وضعوا أقدامهم على طريق البر. ويعد هذا المستوى أدنى مستويات التشيّع. ولبلوغ هذا المستوى ثمَّة القليل مما ينبغي فعله: تلاوة نص معين في مديح بوذا، وختامه بعهد قاطع، عهد موضوع بدقة متناهية. وآخر أقوال العهد، هو: «أرغب أن أعيش حسب الوصايا، محبوباً، نبيلاً، ثابتاً، كاملاً، نقياً، طاهراً، حراً، بما يرفع من شأن المتعقلين، والذين لا ينقضون عهودهم، ويفضي إلى الاستغراق (في عمق الذات)». ومن يبلغ الدرجة الدنيا من البر، يتحرر من الولادات في العوالم السفلية (في الحضيض، وعالم الأشباح، وعالم الحيوانات). ويضمن أنه قد حقق الخلاص، لكنه لم يبلغ بعد مستوى البر الذي يؤهله لقطع سلسلة الانبعاثات: عليه أن يولد سبع مرات أخرى قبل أن يبلغ النيرفانا. أما الذي يحقق الدرجة الثانية من البر، فهو من يكون قد قطع دابر الرغبات، والكره، والغواية في نفسه «حتى أقل أثر». ولن يولد هذا في هذا العالم سوى مرة واحدة بعد ذلك. وتعني الدرجة الثالثة من البر، أن الإنسان الذي يبلغها لن يعود مرة أخرى إلى الحياة الدنيا، لكن عليه أن يولد مرة أخرى في العالم الآخر، عالم الآلهة. ومن هنا تمتد أمامه الطريق إلى النيرفانا. ويمكن لأي بوذي كان أن يحقق درجات البر الثلاث هذه، إذا ما كان سلوكه متوافقاً مع ما هو مطلوب. أما الدرجة الأعلى من البر، الدرجة الرابعة، فلا يستطيع أن يحققها سوى الراهب، فهؤلاء البررة (الارهات) «ناجون من الخوف والكآبة»، حسب قول بوذا نفسه.

وعلاوة على هذا يقسم البوذيون الشماليون مستويات البر إلى ثلاث طبقات:

1- التلميذ، والغلام، والمستمع.
2- البوذا لنفسه.
3- بوذا المستقبل.

وينتمي إلى طبقة التلاميذ، المؤمنون كلهم. وكانت النصوص القديمة - بالي، قد جاءت على ذكر البوذا لأنفسهم. لكن النصوص لا تأتي على ذكر هؤلاء إلا نادراً جداً. وهؤلاء البوذا هم المؤمنون الذين اكتسبوا المعرفة بقواهم الذاتية. والمقصود هنا هو المعرفة الضرورية لبلوغ النيرفانا. ولا يشيع هؤلاء معارفهم، ولا يبشرون بها، بل يبقونها لأنفسهم. ولذلك دعوهم «البوذا لأنفسهم». وقالت النصوص عن البوذا لنفسه إنه يستطيع بلوغ النيرفانا الأعلى، لكنه عاجز عن الكشف عن هذه المعارف لغيره، «تماماً كالأخرس الذي يستطيع أن يرى حلماً مهماً، بيد أنه يعجز عن شرحه للآخرين»، أو «كالمتوحش الذي يدخل المدينة فيقدم له أحد وجهائها ضيافة، وعندما يرجع إلى الغابة لا يستطيع أن يعطي شركاءه هناك فكرة عن الطيبات التي أكل منها، لأنه لم يعتد على مثلها». أما طبقة البررة الثالثة، فهي البودهيساتفا. فمع الوقت يغدو هؤلاء بوذا. ويمكن القول عن بوذا نفسه: إنه قبل أن تأتيه صحوة العقل في الرابعة والثلاثين من عمره، كان هو نفسه بودهيساتفا. وقد يولد البودهيساتفا مرة أخرى في صورة حيوان، إلا أنه يبقى دائماً على درجة البر هذه، ولا يقترف أي إثم في أي ولادة من ولاداته المتعاقبة.

ويقف فوق الكائنات كلها، متعالياً لا يطال، بوذا البر، السامي، الصاحي، المشرق، أو الكامل الصحوة. ويبدأ كل نص بوذي بكلمات بوذا الآتية: «المجد للسامي، البار، الكامل الصحوة!».

ولكن البوذا الذي تحدثنا عنه ليس البوذا الوحيد الذي ظهر على الأرض، فبعد أن تنصرم مقاطع زمنية معينة تدعى كالبا، سوف يهلك العالم كله، ثمَّ يلي ذلك بعث جديد. وقد يظهر بوذا في هذا العصر، لكنه قد لا يظهر أيضاً. وتدعى العصور التي ليس فيها بوذا، «كالبات خالية»، أو «بوذا كالبا». وقد يظهر في عصر واحد من العصور غير الخالية، أكثر من بوذا، حتى الخمسة بوذا. ويدعى مثل هذا العصر الغني بالبوذا، «العصر الكوني المبارك». والبوذا الذي يعيش في زمننا هذا، هو البوذا الرابع. ولكن من المعروف أنه يجب أن يظهر بوذا آخر، هو البوذا الخامس، الذي أطلقوا عليه اسم مايتريا، أو ميتيا بلغة بالي. ويعلق البوذيون آمالاً كبيرة على هذا البوذا الخامس الذي يجب أن يظهر في زمننا هذا. وهو موجود في وقتنا الراهن، لكنه موجود بصفة من لم يبلغ الصحوة بعد. ولذلك فهو لا يزال مجرد بودهيساتفا. وعلى هذا النحو فإن العملية الحسابية هنا على الشكل الآتي: بما أنه قد انصرم عدد لا عدَّ له من العصور، بما فيها عصور «غير خالية»، فإن هذا يعني أنه كان فيها كمّ لا عدَّ له من البوذا الذين حققوا الصحوة. والبوذا الخامس في هذا العصر، البوذا ميتيا، سوف يظهر بعد ثلاثة آلاف سنة.

وهناك سبعة وعشرون بوذا أسماؤهم معروفة، وثمَّة ملفات كاملة عن حياة أربعة وعشرين منهم دونت سيرهم شعراً: البوذا فامسا. وقد دخلت هذه البوذا فامسا قانون البوذيين الجنوبيين. أما البوذيون الشماليون، فإن لديهم عدداً أكبر من البوذا. لكن البوذا الأهم بينهم، هم البوذا السبعة الأخيرون (بمن فيهم بوذانا هذا). ويدعى هؤلاء البوذا، «بوذا الصورة البشرية». ثلاثة منهم في العصر الذهبي، واثنان في العصر الفضي، وواحد في العصر الحديدي (هو بوذا الذي نحن بصدده هنا). وللرواية الجنوبية عملياً، التصور عينه عن هؤلاء البوذا السبعة. ويضيف البوذيون الشماليون إلى هؤلاء البوذا، خمسة بوذا آخرين غير ماديين، ويدعونهم «بوذا الاستدلال العقلي». ثمَّ أقرت طائفة البوذيين الشماليين فيما بعد، أن لكل بوذا يظهر على الأرض في صورة بشرية، مثيل في عالم اللاشعور. وليس لمثل هذا البوذا اسم أو صورة. وليس البوذا الزمني سوى انعكاس لانبثاق البوذا السماوي. والبوذا السماويون هم عملياً آلهة. فليس لهم والدان، لكن كلاً منهم يصنع بانبثاقه ولداً له على الأرض. وينبغي على هذا أن يراقب التزام الناس بالناموس الصالح. فتكتمل بذلك الحلقة: لقد حل بوذا السماء بدلاً من الآلهة، ولكن مرة أخرى، لم يؤت على ذكر من وضع تلك القوانين الصالحة، التي ينبغي مراقبة تنفيذها. فالقانون هو القانون. ويجب أن يكون واحداً في الأزمنة كلها، وله مشرّعه الذي وضعه: صانعه، خالق هذا العالم. أمّا البوذا، فهم يظهرون بين وقت وآخر. وقد تمر قرون لا يظهر فيها أي بوذا. ولذلك فإنهم لا يمكن أن يكونوا هم من شرّع هذا القانون الواحد الموحد المستقر: فهؤلاء عابرون، طارؤون. زد إلى هذا أنهم عاجزون عن متابعة تطبيق القانون على الأرض، لأنهم ليسوا على الأرض دوماً. ونحن كنا قد رأينا أن أتباع بوذا يفتقرون إلى وجود الإله الواحد، ويسعون إلى تعويض هذا النقص، بإدخال بوذا السماء في موازاة بوذا الأرض. ولكن ما الداعي لتعقيد هذا الأمر هذا التعقيد كله إذا كان يمكن أن نسمّي الأشياء بأسمائها، فندعوا الإله إلهاً، والبوذا بوذا؟ فهناك إله، وهناك رسوله، ابنه الروحي إذا جاز التعبير. فصحوة بوذا تتلخص في إدراكه الناموس الفاعل في العالم، هذا الناموس الذي شرّعه الإله. لكن فرحة بوذا جعلته ينسى الذي شرّع الناموس، وينسى وجوده نفسه، ويعلن أنه هو، بوذا، أكثر ذكاء من الآلهة والناس. ومن هنا جاءت محاولة أتباع بوذا لتجاوز سهوة معلمهم، فأقاموا في السماء بوذا سماوياً بدلاً من الإله الواحد. لكنهم فشلوا في جعله بوذاً أزلياً، وبغير هذا لا يمكن أن يكون هذا إلهاً، ونشير في السياق إلى أن البوذيين الشماليين حاولوا أن يتجاوزوا هذه الصعوبة أيضاً، فرأوا أنه لم يكن ثمَّة انقطاع زمني بين البوذا الخمسة، وأن مصدرهم كان واحداً، هو بوذا الموجود أبداً، بوذا السماوي الذي دعوه، بوذا البدئي. وعلى هذا النحو يكون هؤلاء قد اقتربوا كثيراً من فكرة التوحيد، التي تقوم على مبدأ وجود بوذا البدئي بدلاً من وجود الإله الواحد.

التلاميذ و الطائفة

لقد انتقى بوذا تلاميذه من شرائح المجتمع كلها، من الكاستات كلها. فهو لم يعترف بالتقسيم الكاستي في هذا الميدان (الميدان الديني). وقد جاء عن هذا في النص البوذي ما يلي: «من يصير راهباً من الكاستات الأربع، وبارّاً، ويقمع الغرور، ويغدو كاملاً، ويرمي عن كاهله العبء الذي ألقاه التمسك بالعالم على كاهل الإنسان، يحقق غايته، فيقطع كل صلة له بالوجود، ويحقق الخلاص عبر كمال المعرفة، ويعلو فوق الكل عبر القانون فقط».

عبر القانون تحديداً، عبر القانون الواحد لجميعهم، عبر القانون الذي منحه الإله الواحد للعالم كله. ومن يستطيع سوى الإله الواحد أن يمنح قانوناً واحداً؟ فأي إنسان مهما كان متميزاً، أو حتى إذا كان شبه إله، سوف يصوغ إرشادات حسب اعتقاده، وحسب فهمه لجوهر الأشياء. إن القوانين البشرية كقاعدة، تعكس مصالح جماعات معيّنة من الناس. علاوة على هذا، إن مثل هذه القوانين تكون عادلة، منصفة ونافذة أثناء مقطع زمني محدد، ثمَّ تستبدل بها قوانين أخرى. ولذلك فإن الحديث عن قانون مطلق ملزم بجمعهم في الأزمنة كلها، ممكن فقط، إذا كان قد شرّع هذا القانون، خالق العالم، صانع الكون، الإله الواحد. فقانون الإله يعلن: «لا تقتل!» في أي حال من الأحوال، وبناء على أي أمر صادر عن أي كان. فالقتل (أو الأمر بالقتل، أو التحريض على القتل) إثم، والقتل، أيّ قتل هو انتهاك لقانون الإله الواحد. أما القانون البشري، فإنه «كعريش المركبة». فبقدر ما يقتل الإنسان من البشر الآخرين، أو بقدر ما ينجح في تنظيم عمليات القتل، بقدر ما يحظى بالاحترام، والمجد، والأوسمة. والحقيقة إن مثل هذه المكافآت لا تمنح لقاء أي قتل، إنما فقط لقاء القتل الذي للسلطات مصلحة به. ولذلك فإن انتهاك القانون البشري يعد جريمة، وليس إثماً. فالأفعال عينها (القتل مثلاً)، قد تمنح الإنسان وساماً، وقد يدفع حياته ثمناً لها. ويرتبط الأمر كله بالقوانين المعمول بها في المكان المعني، في البلد المعني، وفي الزمن المعني. ولكن القانون الإلهي لا يقبل هذا بأي حالٍ من الأحوال. فهو واحد في الأزمنة كلها، وواحد للشعوب كلها:

لا تقتل، نهي قاطع عن فعل القتل في تعاليم موسى، والمسيح، ومحمد، وبوذا. ولذلك فإن هذه التعاليم (الديانات) تعيش الآن، وسوف تبقى إلى الأبد، لأنها تقوم على القانون الإلهي الواحد. ففي مكان ما يمكن تحريم أكل لحم الخنزير، ولكن السماح به ممكن في مكان آخر، وقد يفرض الصوم يوماً واحداً في الأسبوع، أو في العشرة أيام، ويمكن مواقتته مع أكثر الأيام صعوبة وفق الشروط الكونية. وأخيراً يمكن أن يفرض الصوم شهراً واحداً في العام. فهذه كلها شروط محلية اشترطتها خصوصيات المناخ، ونمط العيش، وأخيراً حالة الفرد المعني، والعمل الذي يؤديه في الوقت المعني. فمن المعروف مثلاً، أن محمداً أعفى المؤمن من الصوم إذا كان مريضاً، أو على سفر، أو... وما يجري هنا، هو ملائمة هذا الجانب من جوانب الناموس مع شروط عيش الناس انطلاقاً من قاعدة واحدة وحيدة: جعل عيش مثل هؤلاء أكثر يسراً. أما فيما يتعلق بقانون الإله الواحد (لا تقتل على سبيل المثال)، فنحن نعرف أنه ناموس واحد للشعوب كلها، وفي الأزمنة كلها. وعليه، فقد كان بوذا على حق عندما قال: يمكن للإنسان أن يعلو بالقانون وحده. والحقيقة أنه كان ينبغي على بوذا أن يضيف، بالقانون الذي شرّعه الإله الواحد؛ وإلا فقدت كلمة «قانون» مغزاها المطلق. وما رفضه للكاستات عند قبول الأعضاء الجدد في الطائفة، أو في الرهبنة، سوى دليل على أن بوذا أحسن فهم روح القانون الإلهي الذي يساوي بين الناس كلهم. والبوذية نفسها، بصفتها ديناً سوف تعيش إلى الأبد، لأنها صاغت قانون الإلهي صياغة صحيحة، وعلّمت الناس كيفية الالتزام به. أما مواقع الخلل الموجودة فيها، فإنها على الرغم من أنها تبدو للوهلة الأولى متمردة، إلا أنها لا تلبث أن تنسحب إلى المواقع الخلفية. فالإنسان العادي لا ينشغل بها. وبالمقابل فإن هذه الديانة تقود الإنسان العادي إلى الطريق الصحيحة التي تفضي إلى الإله الواحد، عبر السلوك القويم، والعيش المشترك، ومحبة القريب. وواقع الحال، هو أن الإنسان العادي لا يهتم كثيراً لما يسمى به الإله الواحد، خالق القانون. إنه يهتم أكثر بالجوهر، باللبّ. وكان بوذا قد تحدث عن هذا مراراً. وقد جاء في الدهاماباتا: «لا يتحول أحد إلى براهمان لأنه يجدل شعره فقط، أو لأنه ينتمي إلى أسرة نبيلة. فالصالح، والعادل وحده المغتبط، وحده البراهمان». وجاء في نص آخر: «ماذا ينفعك شعرك المجدول أيها الأحمق، وما في ثيابك من جلود الماعز؟ فأنت دنس من الداخل، لكنك تنظف نفسك من الخارج». وقال بوذا أيضاً: «أنا لا أدعو أحداً براهمناً على أساس منشئه، أو حسب والدته، مهما تفاخر في حديثه، ومهما كان ثرياً. فالفقير الذي يتحرر من الرغبات، هو البراهمان عندي». وتشغل الحجج التي تفنّد الإدعاء بأن البراهمان أفضل من الآخرين من حيث المنشأ، أبواباً كاملة في التريبيتاكا. كما تتحدث عن الموضوع عينه، مصادر أخرى أيضاً. فقد ورد في السوتانيباتا مثلاً: «لا أكل الأسماك، ولا الصيام، ولا المشي حافي القدمين، ولا التونزورا (الوقوف على الرأس)، ولا جدل الشعر، ولا قذارة الجسد، والجلود الطرية، ولا تكريم

النار، ولا عهود الندم، ولا الأناشيد، ولا التقدمات، ولا الذبائح قادرة على أن تطهّر الإنسان، إذا لم يستطع أن يقهر الشر ويطرده». أو كما قال بوذا في مكان آخر: «ليس عبر الولادة يحقق الإنسان الخلاص، ولا عبرها يصير براهمناً، بل يحقق الخلاص بأعماله، وبها يبلغ البراهمنية».

وقال يسوع المسيح: «أطلب الإحسان لا القرابين». وقبل المسيح قال بوذا: «شريعتي هي الإحسان لجميعهم». ثمَّ شرح قوله هذا على الوجه الآتي: «بما أن تعاليمي نقية تماماً، فإنها لا تفترض وجود أي فرق بين الوجهاء والبؤساء، بين الأغنياء والفقراء». وقال في مكان آخر: «مثلما الأنهار الكبرى كنهر الغانج، وياموناء، وأشيرفاتي، وسارغو تفقد أسماءها الأولى عندما تبلغ المحيط، وتحمل اسماً واحداً، هو المحيط العظيم، كذلك أيها الرهبان تترك الكاستات الأربع: الكشاتري، والبراهمن، والفيشياش، والسودرا، موطنها لتعيش خارج أي وطن، إذا ما اتبعت قانون السامي الكامل ونظامه، وتفقد أسماءها السابقة وسلالاتها القديمة، وتحمل اسماً واحداً فقط، هو النساك الذين التحقوا بابن ساكي».

لقد كان تلاميذ بوذا ينتمون إلى مختلف شرائح المجتمع. فأناندا وديفاتا كانا من سلالة الساكيين. كما كان أنورودها من النبلاء أيضاً. وكان شاريبوترا وماودغالياينا من البراهمن. وكان مع هؤلاء في الفريق عينه، جماعة الأوبالي، وهم من الحلاقين الذي عدوا في الهند أدنى درجات السلم الاجتماعي، بل كان في الفريق أيضاً، قاطع الطريق أنغوليمالا. وقد قال تلميذ بوذا الآخر ستهافيرا سونيتا عن نفسه: «خرجت من سلالة وضيعة، فقيراً معدماً، وكانت مهنتي وضيعة كذلك، فقد كنت أكنس الزهور (الذابلة) من المعابد، لقد كنت محل احتقار الناس، وكان ينظر إليّ من عل، وكنت أُشتم دوماً. لقد كنت أنحني بخنوع أمام كثيرين». وقال بوذا لسونيتا: «بالحماس المقدس وحياة العفة، بترويض النفس وإخضاع الذات، بهذا يغدو المرء براهمناً: أعلى درجات البراهمنية». وكان بين تلاميذ بوذا «طباخ كلاب» (استهافيرا شغاياكا)، وصياد سمك (سواتم)، وراعي (ناندا). كما كانت راهبات طائفة النساء تنتمين إلى أصول متباينة. ففيمالا كانت ابنة بغي. وكانت أمبابالي نفسها من قبل بغيا. أمّا بورنا فقد كانت ابنة أمة منزلية. وكانت تشابا ابنة صياد، وكثيرات أخريات خرجن من عائلات فقيرة. ولا شك في أن طائفة بوذا، لم تعرف أي شكل من أشكال التمييز بين أعضائها على أساس الانتماء الاجتماعي.

لقد أراد كثير من المؤرخين أن يرى في الشخصيات الدينية شخصيات ثورية، سياسية أو ما شابه. فاتهموا المسيح بأنه لم يبن على الأرض مملكة العدل بين الناس، إنما وعدهم بمملكة لائقة في السماء. وحسب رأي هؤلاء، أنه كان أمراً جيداً لو أن المسيح أخذ على عاتقه بناء مجتمع يسوده العدل الاجتماعي هنا على الأرض. لكن المسيح قال: «..أَعْطُوا إِذاً ما لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وما لِلَّهِ لِلَّهِ»[1]، وعزف عن الخلط بين المسألتين. وقال: «..مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ..»[2]. وهذا ما كان قد فعله بوذا قبل ذلك. فقد أدرك أن الجميع سواسية أمامَ الإله. وبالنسبة لمن كرسوا أنفسهم لطريق الحق، طريق البر في طائفته، لم يكن بينهم تباين اجتماعي. فالأمر المهم تمثل هنا في تحقيق مآثر على طريق بلوغ البر. ولذلك يجب ألا تتألم لأن بوذا لم يعمل على إلغاء الكاستات في المجتمع الهندي. فهو لم يكن ثائراً اجتماعياً على أي حال، بل دعي الرجل لتأدية رسالة أخرى، وقد أداها. كان بوذا يرى أن بلوغ حالة معيّنة في العالم الداخلي (حالة البر)، بأي نظام فلسفي، أو بأي معارف أو أساطير، هو أمر غير ممكن. وأن الوسيلة الوحيدة لبلوغ هذه الحالة، هي الأخلاق، الأخلاق العملية، وهذا ما ميّزه تمييزاً مبدئياً عن فلاسفة مدرسة سامكهيا الذين علّموا، أن الأعمال الصالحة تعيق المرء عن إدراك المعرفة الصحيحة، ولا تمهد له السبيل لبلوغها. وهذا ما يبين كيف للتفلسف أن يقلب الأمور رأساً على عقب. فكل فلسفة من غير استثناء، ينبغي عليها في آخر المطاف، أن تقود الإنسان إلى الأخلاق القويمة، وترشده إلى طريقها، وتجعله أفضل. وإذا فشلت الفلسفة في أن تجعل الإنسان أفضل، فإنها ليست علماً حقيقياً، ليست فلسفة حقيقية. ونحن نقصد بالفلسفة الحقيقية هنا، أنها يجب أن تعكس بصدق صورة العالم الواحدة، وتظهر للإنسان كيف يجب عليه أن يسلك سلوكاً صحيحاً، كي لا تتعارض نتائج تصرفاته مع قوانين الطبيعة، قوانين الإله، وكان بوذا نفسه قد رأى أن «الفلسفة ليست الدواء لمن يبحث عن الخلاص». وأوردت سوتانيباتا على لسان بوذا، أنه من الصعب على المرء أن يختار الفلسفة الصحيحة من بين الفلسفات الكثيرة الموجودة. فبعضهم يختار هذه، وآخر يفضل تلك. ولكن الإنسان الذكي لا يتبنى وجهة نظر قاطعة، ولا يفضل نظاماً فلسفياً بعينه، ولا يقول: «كل شيء واضح لي وضوحاً كاملاً».

ويرى بوذا أن الوداعة هي الأساس على طريق البر. وقال في هذا الشأن: «هكذا أيها الرهبان، الراهب الآخر وديع تماماً، وهادئ تماماً، ومسالم تماماً، إلى أن تبلغ مسامعه كلمات فظة. وإذا ما وصلت الكلمات الفظة مسامعه، فإن عليه أيها الرهبان، أن يبدي الوداعة، ويحافظ على هدوئه، ويقدم نفسه مسالماً. فأنا لا أدعو الراهب وديعاً، إذا كانت وداعته لا تظهر إلا عندما يتوسل ثياباً، أو

١- العهد الجديد، إنجيل متى: 22: 21.

٢- العهد الجديد، إنجيل يوحنا: 18: 36.

طعاماً، أو فراشاً، أو دواء، إذا ما كان مريضاً. لماذا؟ لأن مثل هذا الراهب لن يكون وديعاً، ولن يبدي وداعة إذا ما منعوا عنه الملابس والطعام والفراش والدواء. ولكنني أيها الرهبان، أدعو الراهب وديعاً إذا ما أظهر وداعته احتراماً للناموس، رافعاً رايته عالياً، ولذلك ينبغي عليكم أن تأخذوا بالحسبان أيها الرهبان، أننا سنبقى ودعاء، وسوف نظهر الوداعة لأننا نجلّ الناموس، نرفعه عالياً جداً، ونحترمه».

أما فيما يتعلق بالطائفة، فإن العيش المشترك لأعداد كبيرة من الناس، كان يقضي بوضع نظام محدد، وقواعد سلوك معينة. ولكن هذا وحده لم يكن كافياً. فقد كان الأمر الأساس يتمثل هنا في الاهتمام بتنمية الجانب الروحي لأعضاء الطائفة، وترسيخ رؤى صحيحة، ونشرها بينهم. ولم يكن هذا كله بالأمر اليسير. لا سيما أن بنية الطائفة غالباً ما كانت تتغير. فبعض الرهبان كان يترك بمباركة من بوذا، ويمضي لينشر تعاليمه في الهند وخارجها. وكان كثير من هؤلاء لا يرجع، بل يستقر بعيداً أو على مقربة، وينشئ مدرسته الخاصة به. أما الرهبان الذين كانوا يعودون إلى طائفة بوذا، فيا لكثرة ما رأوا وسمعوا على امتداد الأرض الهندية المترامية الأطراف، وخارج حدودها، وكانت لديهم رغبة للتحدث عما رأوا وسمعوا. وكان أعضاء الطائفة يتناقلون كل ما يقوله هؤلاء. وغني عن البيان أن ما كان يقوله هؤلاء لم يكن يعكس تعاليم بوذا وحده، بل كثيراً مما كان يتعارض معها تعارضاً مباشراً. وهكذا أخذت تظهر شتى النزاعات (على خلفية فكرية)، التي كانت تفضي أحياناً إلى انقسام الطائفة، أو تراجعها (لو مؤقتاً) عن تعاليم معلمها بوذا. ونحن لا نشك لحظة في أن بوذا قد تجاوز على مدى عشرات السنين، أزمات عديدة مع طائفته. خاصة وأن الشكل التنظيمي للطائفة لم يكن فعالاً. فعندما عجز موسى عن قيادة شعبه، الذي سار وراء أولئك الذين فضلوا عبادة الثور الذهبي على عبادة الإله الواحد، امتشق سيفه. ومع أن موسى كان يمتلك فن التأثير على الجمهور بشتى الوسائل، إلا أنه وجد نفسه مرغماً على تجريد سيفه، وإلا ضاع العمل الذي انتدبه الإله له. أما بوذا فقد سلك طريقاً مغايرة. ويبدو أنه كان يفضّل أن تنتظم الأمور في الطائفة من تلقاء نفسها، وإلا كيف يمكننا أن نفسّر سلوكه في آخر حياته، عندما طلب إليه تلميذه المفضل أناندا أن يعلن آخر التعليمات في المشاعة، فأجابه بوذا قائلاً: «ما الذي تريده مني طائفة الرهبان بعد الآن يا أناندا؟ لقد أعلنت القانون يا أناندا، ولم أُسقط شيئاً أو أُخفي شيئاً منه، لم ينس الكامل شيئاً يتعلق بالقانون، وهو معلمكم. وإذا ما فكر أحدهم يا أناندا وقال في نفسه: أريد أن أقود طائفة الرهبان، أو يجب على طائفة الرهبان أن تخضع لي، فليصدر هو التعليمات المطلوبة يا أناندا. ولكن الكامل لا يفكر يا أناندا في أنه يجب أن يقود طائفة الرهبان، أو أن تخضع له طائفة الرهبان؛ فلماذا يجب على الكامل يا أناندا أن يصدر تعليمات لطائفة الرهبان؟ أنا الآن شيخ مسنّ يا أناندا، كهل أنهكته السنون، بلغ من العمر عتياً؛ عمري الآن ثمانون عاماً...

عيشوا أنتم يا أناندا، بحيث تكونون لأنفسكم مشاعل، ملاذات، لا تبحثوا عن مشاعل أخرى سوى مشاعل القانون، ولا عن ملاذات أخرى سوى ملاذات القانون».

لكن سلوك بوذا هذا سلوك غريب حقاً، إذ حتى من الوجهة الأخلاقية لم يكن بوذا محقاً في سلوكه هذا، لقد كان لزاماً عليه أن يهتم بمستقبل الطائفة، ويؤسس تنظيمها على أسس صحية، فلماذا لم يفعل؟ ربما منعه من فعل ذلك كماله، الذي كان المحيطون به يذكّرونه به كل دقيقة. وربما كان من الصعب عليه أن يرى أحداً آخر يعتلي عرشه؟ ولذلك لم يكن غريباً أن تنهار طائفة بوذا بعد وفاته مباشرة. زد إلى هذا أن تأثير الحدث طال الهند كلها: سرعان ما أخذت تعاليم بوذا تغوص في عالم النسيان، حقاً يجب أن يكون القائد أيديولوجياً وخبيراً عملياً.

والحقيقة أننا لسنا منصفين تماماً عندما نقول هذا عن بوذا. فقبل موته أعطى بوذا تعليماته للطائفة. وقد تلخصت هذه في أنه يجب على الرهبان ألا ينادي أحدهم الآخر بكلمة «أخ»، بل بما يتوافق وسنه. فقد بات على الأكبر سناً حسب التعليمات الجديدة، أن ينادي الأصغر سناً باسم أسرته، أو يناديه بكلمة «أخ». وبات على الأصغر سناً أن ينادي الأكبر بكلمات مثل: «الجليل» أو «السيد».

وها نحن نسوق معطيات عن انقسام طائفة بوذا. قبل بداية القرن الثالث قبل الميلاد، بعد وفاة بوذا خرجت من الطائفة ثماني عشرة مدرسة تقريباً، وأسست هذه أديرتها (وضعت مواثيقها). ونحن أشرنا سابقاً إلى أن أوساط الرهبان لم تعرف أي شكل من التراتبية. مع أن بعض الرهبان حقق بعض البروز، لكن بقدم عضويته في الطائفة: «الكهول»، «الشيوخ». ومن حيث اللقب كان هؤلاء كالأحبار في المسيحية. ولكن من حيث اللقب فقط، وليس حسب واقع الأشياء. ففي الواقع لم يكن هؤلاء إداريي الطائفة، ولم تكن لهم أي سلطة. لقد كان لقب «شيخ» لقباً شرفياً فقط. فتميزهم الذي كان يستند إلى كبر السن، وتجربة حياتية ورهبانية كبيرة، لم تكن له أي قوة قانونية، ولم يرسخه ميثاق الدير. فطائفة الرهبان كانت هي المرجع القانوني الأعلى. ومن الواضح أن هذا البناء التنظيمي، لم يكن البناء الأكثر فعالية لتنظيم العيش المشترك للجماعات البشرية.

ولم يبدأ وضع قواعد العيش المشترك وتطبيقها إلا بعد وفاة بوذا، بعد أن تمت مراسم حرق جثمانه في كوشيناغارا مباشرة. وواقع الأمر هو أنه لم يكن ثمَّة إمكانية لأي تأخير، لأن فريقاً من الرهبان كان قد شط كثيراً في معارضته. وهذا ما تشهد به كلمات الراهب سوبهادرا التي سقناها قبل قليل. وقد تولّى زمام المبادرة في هذا الموضوع، الراهب ماهاكاشيان. فاقترح على الرهبان المجتمعين هناك، أن يختاروا لجنة تضع القانون (الدهارما، الدهاما)، ونظام الانضباط (فينايا). فوافق الرهبان على الاقتراح الذي يبدو أنه جاء في الوقت المناسب. وقد عهدوا إلى ماهاكاشيان نفسه بتشكيل اللجنة. فاختار هذا

449 أرهاتاً، ثمَّ ألحقوا أناندا باللجنة (لأنه كان على وشك أن يصير أرهاتاً). ثمَّ أقر الاجتماع العام للطائفة قوام اللجنة. وكان على اللجنة أن تبدأ عملها أثناء عدة أشهر في ضواحي مدينة راجاغريها. وتحدد وقت عمل اللجنة مع بدء فصل الأمطار. وبهدف خلق مناخ عمل ملائم للجنة، منع الرهبان من التواجد في المدينة وضواحيها أثناء الوقت المعني. وبنى الملك أجاتاشاترو، تكريماً للجنة، بناء مسقوفاً على جبل وايبهارا الواقع على مقربة من عاصمته. وفي الشهر الثاني من موسم الأمطار، افتتح اجتماع اللجنة أعماله، التي استمرت سبعة أشهر. وأثناء ذلك الوقت نجح كاشيانا بمساعدة أوبالي في مراجعة قواعد الانضباط كلها، ووضعها في سياق منطقي. ثمَّ رمم بمساعدة أناندا، قواعد القانون. وتعلن النصوص البوذية أنه جرى في ذلك الوقت وضع نص فينايا بيتاكا وسوتابيتاكا. وليس لدى المتخصصين المعاصرين أدنى شك في هذا. إنه الدهاما فينايا، «القانون، ونظام الانضباط»، القاعدة التي قامت عليها الكنيسة البوذية. ويعتقدون أن نصه كتب بلغة الماغادها. وقد استندت كل قوانين الكنيسة البوذية بعد ذلك، إلى هذين النصين.

لكن ما يثير الفضول، هو أن القانون الذي وضعته اللجنة لم يحظ بقبول المشاعة كلها. فثمَّة ما يشهد على أن الراهب بورونا الداكشيناغيري قد جاء إلى راجاغريها إثر انفضاض الاجتماع. وقد خاطبه الشيوخ قائلين: «أيها الأخ بورونا، لقد أقر الشيوخ القانون ونظام الانضباط. فاقبل بهذا القانون». لكن بورونا عد الأمر تطاولاً على حريته الشخصية. وعبر عن ذلك بقوله: «لقد أقر الشيوخ أيها الأخوة قانوناً ونظام انضباط جيدين. لكني أوثر أن أتمسك بما سمعته بنفسي من الرب وتعلمته منه».. وكان بورونا هذا على رأس خمسمئة راهب جاؤوا معه. ولم يكن بين يديّ الشيوخ قاعدة شرعية تلزم بورونا بالميثاق الجديد. فقد كان ينبغي أن توضع مثل هذه القاعدة في حياة بوذا.

وبعد مئة عام دُعي المجمع البوذي الثاني إلى الاجتماع. وكان على عرش ماغادها في تلك الأثناء، الملك آشوك. وتمييزاً له عن الملك آشوك بريادارشين، يدعى هذا الملك «آشوك الأسود». وقد كان السبب الكامن وراء ضرورة عقد المجمع البوذي الثاني، هو ارتكاب فريق من الرهبان عشرة آثام. وكان بين هذه الأخيرة جنح بسيطة. فقد أوصى بوذا الرهبان على سبيل المثال، ألا يجمعوا أي ذخيرة لهم. لكن رهبان فايشالي انتهكوا هذه الوصية، وخزنوا ملحاً في قِرن. وكان الانتهاك الثاني الذي اقترفه رهبان فايشالي، هو أنهم باتوا يتناولون وجبتين في اليوم وليس وجبة واحدة. وتمثلت الآثام الأخرى في أن هؤلاء أخذوا يشربون خمرة النخيل، ويقبلون صدقات من الفضة والذهب: لقد كان المؤمنون

يرمون تقدماتهم من الفضة والذهب في قدر مليء بالماء، كان الرهبان يضعونه في المعبد أيام الأعياد. وتفيد النصوص أيضاً أن الرهبان هم الذين كانوا يطلبون من المؤمنين أن يتبرعوا بالذهب، زد إلى هذا أن النصوص المتأخرة تقول، إن قيّم الدير كان عنده قدر خاص للتقدمات التي من الذهب الخالص. وفي أيام انتصاف القمر، كان يرسل هذا القدر مع الكاهن إلى المدينة ليجمع به تقدمات الفضة والذهب و...

لقد استنكر الجليل ياشاس ذلك السلوك، إذ اطلع عليه لدى زيارته للدير. ورفض حصة الذهب التي قدمها له الرهبان. فأحس هؤلاء بالإهانة، وشرعوا يجادلون ياشاس أنه بسلوكه هذا، إنما يحتقر المؤمنين الذين يقدمون التقدمات من قلب صاف وإرادة طيبة. وزعموا أنهم إنما يدافعون عن شرف المؤمنين الذي أهانه ياشاس، وأرغموا هذا الأخير على أن يعتذر لهم. فتطور النزاع حتى بلغ درجة الغليان، وانتهى إلى التئام المجمع البوذي الذي شارك فيه سبعمئة راهب. ولكن أهمية المجمع كانت محلية، ولم يقر إحداث أي تغييرات في القوانين والقواعد.

وفي العام 245ق.م. التأم المجمع البوذي الثالث. وكان ذلك في العام الثامن عشر من عهد الملك آشوك بريادارشين. ففي عهد هذا الملك صارت البوذية إلى ديانة رسمية للدولة. ونحن كنا قد سقنا سابقاً نصوص مراسم هذا الملك التي تميزت بتسامحه مع الديانات الأخرى. وقبل التئام المجمع الثالث بخمس سنوات، أنشأ آشوك مؤسسة خاصة «لموظفي الديانة» (الدهارماهاماترا). وكانت مهمة هؤلاء متابعة ذلك القطاع من النظام العام في الدولة، الذي كان يتعلق بالشؤون الدينية. وفي مرسومه الخامس عرض الملك للواجبات التي كان يجب أن تضطلع بها المؤسسة. وأبدى الملك كرماً فائقاً تجاه العاملين في الميدان الديني، وتجاه رهبان الدير. وهذا ما حفز تدفق كم كبير من العناصر الغريبة عن البوذية كدين وأخلاقيات، واستقرارها في الأديرة. ففي كثير من الأديرة لم يكن ثمَّة انضباط، حتى الرهبان أنفسهم لم يؤدوا طقس الاعتراف في أيام الأوبافاستها. وقد حاول قيّم الدير المركزي جاهداً أن يضع حداً للتسيب، ويدفع بالأمور نحو الأحسن. لكن جهوده باءت بالفشل. عندئذٍ ترك الدير واعتزل في صحراء تتوضع وراء الضفة الأخرى لنهر الغانج. فتدخل الملك، ودعي المجمع البوذي الثالث للاجتماع. وقد أسفر ذلك الاجتماع عن طرد الرهبان الذين ظهر أنهم لا يملكون أي فكرة عن البوذية (60.000 راهب). وكان قد شارك في أعمال المجمع ألف راهب اختارهم القيّم ماودغاليبوترا، الذي أعاده الملك من عزلته في الصحراء إلى الدير. ووضع المشاركون في اجتماع المجمع الثالث وثيقة خاصة، هي الكاتهافاتها، التي أُعطي فيها تأويل للمذهب البوذي الذي كان يعتنقه مادوغاليبوترا وأنصاره. وقد دخلت

هذه الوثيقة أبهيدهامابيتاكا القانون الجنوبي. ولا يزال السينغاليون يعتنقون هذا المذهب البوذي حتى يومنا هذا.

ومنذ انعقاد المجمع البوذي الثالث، بدأت حركة التبشير البوذية في البلدان الأخرى. ففي ذلك الوقت أُرسل مبشرون إلى كشمير، وكابولستان، والمملكة الإغريقية الباكترية، وبلدان سفوح الهيملايا، وغربي ديكان، والهند الصينية. كما لم تخرج سيلان من الخطة. فقد توجه إليها ماهندرا ابن الملك آشوك. لقد وضعت البوذية نصب عينيها أن تنجز مهمة عالمية، تمثلت في إشراك شعوب آسيا غير المتحضرة في الثقافة الهندية وإنجازاتها. ولسيلان دور متميز في تاريخ البوذية. فالبوذية حافظت هنا على صيغتها النقية، بينما دخلت البوذية في الهند نفسها، طور السقوط، وتعرضت في التيبيت والبلدان الشمالية الأخرى لعملية إفساد حقيقية.

وانعقد المجمع البوذي الرابع في عهد الملك الهندي السكيثي كانيشكا، الذي كان يدير في القرن الأول قبل الميلاد، دولة مترامية الأطراف. وكان جزء كبير من الهند يدخل قوام تلك الدولة. لقد اشتهر الملك كانيشكا هذا بأعماله عند البوذيين الشماليين، كما كان الملك آشوك قد اشتهر عند البوذيين الجنوبيين. والحقيقة أن الملك كانيشكا كان قد اتخذ في السنوات الأولى من عهده، موقفاً معادياً للبوذية، إلا أنه تحول بعد ذلك إلى بوذي غيور. فجعل من كشمير العاصمة الرئيسة، مركزاً للبوذية. وحسب الحوليات الصينية أن الملك كان يدرس المصادر البوذية المقدسة في الأوقات التي كان يتحرر فيها من أعمال الحكم. وكان الشيخ بارشيكا، هو مرشده في تأويل تلك المصادر. وكان بارشيكا يرئس مدرسة من مدارس البوذيين. لقد بنى الملك كانيشكا كثرة من المعابد البوذية. ونقش على النقود صورة بوذا. واهتم الملك بتثقيف شعبه. وكان تشاروكا طبيبه الخاص، وكان هذا أحد أشهر أطباء الهند. وقد وصلت مؤلفات هذا الطبيب في العلوم الطبية إلى أيامنا هذه، كما عاش في قصر الملك، الشاعر الشهيد أشفاغهوشا، الذي كتب سيرة «حياة بوذا» (البودها تشاريتا). ولا يزال هذا المصدر موجوداً حتى يومنا هذا.

وفي سياق اهتمامه بثقافة المجتمع وأخلاقه، لم يكن بمقدور الملك أن يقف لا مبالياً تجاه النزاعات التي كانت تدور بين قادة البوذية. لقد ولّدت تلك النزاعات الخصومة والتطاحن في داخل الطوائف نفسها. ولتحسين تلك الحالة المزرية، قرر الملك دعوة المجمع الرابع إلى الانعقاد. وقد التأم هذا وجرت أعماله في أحد أديرة كشمير الواقع على مقربة من جالاندهارا. ورئس أعمال المجمع البطريركان

بارشفيكا، وفاسوميترا. وكان من المهمات التي وضعها المجمع أمامه، إعادة النظر في الكتب المقدسة البوذية، ووضع قانون جديد. ونحن لا نعرف حتى الآن، إلى أي حد كانت تلك التغيرات تغيرات مبدئية جدية. وليس لدينا كذلك معطيات عن سير أعمال المجمع، وبأي لغة كتب القانون الجديد. لكن المتخصصين يؤكدون أنها لم تكن لغة بالي. وعلاوة على القانون الجديد، وضع المجتمعون تعليقات وشروحات على ثلاثة أجزاء من التريبيتاكا. ووفق رواية الملك كانيشكا أن النصوص المعنية قد نقشت على صفائح نحاسية، ووضعت في صندوق حجري بنوا فوقه جرناً مهولاً (مرتفعاً تذكارياً). لكن المجمع لم ينته إلى وفاق، فلم ينجح البوذيون في توحيد صفوفهم، بل حصل العكس، إذ تواصل انقسام الكنيسة البوذية، ولكن بوتائر أسرع. ففي قرابة العام 194. أنشأ ناغارجونا طائفة - مدرسة دخلت التاريخ تحت اسم ماهايانا (السفينة الكبيرة). وسرعان ما اكتسبت المدرسة الجديدة أعداداً كبيرة من الأتباع في الشمال. لقد كان ذلك الانقسام انقساماً عالمياً في الكنيسة البوذية. أما من لم يتبع ناغارجونا من البوذيين، فقد دعوا أنفسهم أتباع الهينايانا (السفينة الصغيرة). وجاء نشوء هاتين المدرستين من الآتي: لقد وضع أتباع الماهياتا أمامهم هدفاً، هو انبعاثهم كبودهيساتفات؛ أي أنهم أعلنوا عن رغبتهم في بلوغ «مرتبة كبيرة» (ومن هنا «السفينة الكبيرة»). أما الهينايانا فقد اكتفوا بهدف أكثر تواضعاً، هو تحقيق خلاص أنفسهم وحسب، أي «بمرتبة صغيرة» (ومن هنا «السفينة الصغيرة»). والحقيقة أن هؤلاء وضعوا لأنفسهم الهدف عينه الذي وضعه بوذا أمام أتباعه. ونحن إذا ما نظرنا إلى هذا الأمر من زاوية الشكل، فإننا سنردد مع المؤرخين الدينيين، إن أتباع الهينايانا، هم أتباع البوذية الحقيقية، تلك البوذية التي ظهرت في العالم بفضل بوذا. وكان محور ارتكاز هذه التعاليم، هو الخلاص من الآلام، إذ يجب على كل إنسان أن ينقذ نفسه على وجه التحديد. ولكن غني عن البيان أن بوذا لم يهتم بإنقاذ نفسه فقط، بل بإنقاذ الآخرين كلهم أيضاً. ومن أجل هذا نفسه طوّر بوذا تعاليمه وبشّر بها في الهند وخارج الهند. ومع ذلك فإن الحديث لا يدور في تعاليم بوذا إلا عن إنقاذ الذات، وحقيقة الأمر، هي أن الأخلاق البوذية السامية، بدعوتها لمحبة القريب، والصفح عن الأعداء، والتضحية بالنفس في سبيل خير الآخرين، تعوّض ذاتية التعاليم التي نحن بصددها (خلاص النفس وحسب). فمن حيث الجوهر، لم يعجب الناس يوماً بمن يفرط بالاهتمام بمظهره، وخلاص روحه. فأنت قد تحترم في هؤلاء قوة الإرادة، والمثابرة والتصميم على بلوغ الغاية، و... لكنك لا ترغب في أن تحب مثل هؤلاء، على الرغم من أنهم لا يتسببون لأحد بأذى، ولا يقترفون أي شر ضد الآخر. فشعور «اللا أرغب» يأتي إلينا من مكان ما في الخارج، من اللاوعي، من حقل الإعلام الكوني، من الإله. وسبب هذا الشعور، هو أن أي إنسان على الأرض، أو أي كائن حي في الكون لا يمكن أن يوجد بنفسه، ولا يعيش لنفسه، وليس وحده مستقلاً عن الآخرين. وليست الاستقلالية الفيزيائية الموهومة، خاصة

بالنسبة للزاهد الناسك، سوى خداع للذات. فقد تقتات بالعسل والجذور البرية والحشائش، ولا تشرب إلا مياه الأنهار والينابيع، وقد تستغني عن بني جنسك أشهراً وسنوات. لكن هذا لا يعني أنك بتّ مستقلاً عن الآخرين، معزولاً عنهم. ففي أي حال من الأحوال، لا يمكن أن يعزل الإنسان نفسه عن الآخرين؛ يمنعه عن ذلك الجوهر البشري نفسه، الماهية الإنسانية نفسها، هذه الماهية التي تتكون من أفراد مستقلين كما من خلايا مستقلة. فلكل خلية من خلايا الجسم البشري، الوظيفة الخاصة التي تختص بها هي وحدها في الحفاظ على استمرار حياة جسم الإنسان كله. ومن أجل هذا جاءت خلايا الجسم البشري مختلف بعضها عن بعض، لأن لكل منها وظيفة مختلفة. وكذلك الإنسان الواحد. فهو ليس سوى خلية في جسم البشرية الواحد، بل إذا شئتم في المادة الحية كلها، على الأرض وفي الكون (حسب مصطلحات ف. أ. فرنادسكي). ولذلك نحن لا نريد أن نحب الذي يظهر مستقيماً في علاقاته كلها، لكنه لا يهتم إلا لخلاص نفسه وحسب. فهل يمكننا أن نتخيل المسيح ساعياً لخلاص روحه فقط؟ أو هل يمكننا أن نتخيل أن رسالة محمد، وإبراهيم، وموسى، وبولس وسواهم من عظماء الجنس البشري، تقتصر على هذا فقط؟ لقد اهتم عمالقة الروح هؤلاء بالناس كلهم، ولم يهتموا بأنفسهم. فالمسيح لم يذهب إلى الصالحين، بل إلى الخاطئين؛ لأن هؤلاء كانوا يحتاجونه، كما يحتاج المرضى الطبيب. لقد توجه يسوع إلى العشّارين الذين كان المجتمع يحتقرهم، وإلى الزانيات، وأعادهن إلى طريق الحق. فالشاة الضالة أغلى مئة مرة من تلك التي مع القطيع! لقد كان المسيح محقّ إذ وعد أسوأ الخطاة والمجرمين بفردوس السماء. لكن شريطة أن يولدوا ولادة جديدة. إذاً، يجب أن يتبدل العالم الداخلي للإنسان أولاً، عليه أن يعي مكانه، وغاية وجوده، ويتوب توبة صادقة: ويقف على طريق الحق، طريق الإله، ولذلك يغدو مفهوماً قوله: «إن مملكة السماء في داخلكم». إذاً حسب المسيح، يمكن لأي إنسان أن يحقق الخلاص مهما كان ماضيه آثماً. أما بوذا فقد قسم الناس إلى رهبان ومؤمنين، ومنح الرهبان وجوداً غير طبيعي على حساب المؤمنين، علاوة إلى هذا، يستطيع راهب بوذا عندما يجد نفسه في وضع مميز، أن يكرس كل اهتمامه لروحه والسعي لخلاصها. وحسب قوانين البوذية أن أي مؤمن لا يستطيع يوماً أن يبلغ قمة الكمال الروحي التي يبلغها الراهب. وعليه ليس عبثاً أن وضع بوذا الراهب فوق الآلهة، وليس فوق الآلهة العاديين فقط، بل فوق الإله إيندرا نفسه. ونحن أشرنا سابقاً إلى أن بوذا صعد إلى إيندرا في السماء، وأدار معه نقاشات، كان بوذا فيها أكثر من ندّ لإيندرا. وبعد بوذا صعد الراهب ماود غاليانا إلى إيندرا. ولكي يظهر للآلهة مدى جبروته هزَّ السماء، عرش إيندرا، بإصبع من أصابع قدمه. إن كل شيء هنا بالمقلوب. وكان فهم الأمر عسيراً. فالكون، بما في ذلك الإنسان بصفته جزءاً من الكون، صنع وفق خطة موحدة، وفق منهج واحد، وفق صناعة واحدة، وهو نظام عظيم التعقيد، لم يأت أي شيء فيه مصادفة. وهذا يعني أن كل شيء يحدث وفق

قوانين وضعت مرة واحدة وإلى الأبد، ونحن يمكننا أن ندعو تلك القوانين، قوانين الطبيعة، أو أن نسميها تسمية ما أخرى، بيد أنها في الأحوال كلها، ليست سوى قوانين بشرية. بيد أن الإنسان يستطيع اكتشافها، وإدراك أجزاء منها، ورؤية نتائجها. وعندما ينجح الناس في هذا (وكان الإله قد خلق الإنسان ومنحه عنصر الإبداع)، فإنهم يفخرون بأنفسهم، ويظنون أنهم ملوك الطبيعة. ويظن هؤلاء في غضون ذلك، أنه بما أنهم موجودون بفضل إمكاناتهم العبقرية، فليس ثمَّة ضرورة لوجود الإله. فالراهب البوذي زعزع أركان السماء بإصبع قدمه، والعالم لابلاس أعلن أن نظريته عن بناء الكون ليست بحاجة إلى فرضية وجود إله. إن غطرسة الإنسان وعمهه لا حدود لهما.

ونحن يمكننا أن نصوغ ما سبق عرضه هنا صياغة موجزة على النحو الآتي: بما أن لهذا الكون علته الأولى، مبدأه وقوانينه التي تسيّره، وبما أن الكون منظومة موحدة، فإنه لا يمكن للإنسان ألا يرى نفسه أنه مجرد جزيئة متناهية في الصغر، منخرطة في هذه الآلية الكونية المعقدة. ولذلك ليس بمقدوره أن يكون موجوداً بذاته، كما لا يمكنه أن يهتم بخلاص نفسه وحسب، بل هو محكوم بأن يهتم بخلاص الجميع، لأن وجوده مرتبط بوجود هذا الجميع. ولذلك فإن الدعوة إلى خلاص النفس، ونفي وجود مبدأ الكون الموحد، الإله الواحد، يناقضان منطق الأشياء.

أما تيار البوذية الثاني (الماهيانا)، فإنه حسب المتخصصين يقف بعيداً جداً عن تعاليم بوذا الأولى. فقد كتب هؤلاء على رايتهم المرفوعة على «السفينة الكبيرة»، دعوة لا لإنقاذ الذات فقط، بل للعمل على إنقاذ الآخرين أيضاً. والحقيقة أن ابتعاد هذا التيار عن البوذية الأم، لا يقتصر على هذا الموقف وحده، فالبوذيون الشماليون أدخلوا تبدلات مبدئية على الموقف من الطقوس، والصلوات، والأيقونات وما إلى ذلك. ونحن يجب ألا ننظر إلى مثل هذه الحالة إلا من زاوية وحيدة: ما الذي يعطيه هذا للناس؟ فيجب أن يكون المنطلق في هذا المجال، هو المبدأ التالي: «لم يخلق الإنسان من أجل السبت، بل السبت من أجل الإنسان». وهذا يعني أن ما يجب أن يؤخذ به، هو مغزى ما يجري، جوهره، وليس القيود الشكلية التي وضعها الرؤساء الروحيون. لقد منحت البوذية الشمالية (السفينة الكبيرة)، الديانة البوذية آلهة وقورين محترمين. وقد تأسس هذا التيار فكرياً في كتاب «إرشادات لكمال المعرفة». ويبدو أن زعيم هذا التيار ناغارجونا، هو الذي كتب هذا الكتاب. وفيما بعد، أدخل على هذه الإرشادات مزيداً من الإضافات الجديدة. ويلحق البوذيون الشماليون النص الأول «للإرشادات»، بالكتب التسعة القانونية. ويتألف النص من اثنين وثلاثين فصلاً كتبت نثراً باللغة السنسكريتية في صيغة حوار بين بوذا، وشاريبتوترا، وسوبهوتي.

لقد رأينا أنه لم يكن للبوذية مركز قيادي واحد محدد، كما كانت الحال في المسيحية. ولم يظهر مثل هذا المركز إلا في القرن 12م لدى البوذية الشمالية، وتحديداً في التيبيت. ففي الوقت المعني كانت البوذية قد ولدت هنا ولادة جديدة،

وتحولت إلى الصوفية والسحر. وباتت تدعى يوغاتشارا، وكان أرياسانغا الكابولستاني قد أسس هذا الاتجاه البوذي منذ القرن الخامس الميلادي. وقد جاءت هذه التعاليم الجديدة مركّبة من التعاليم الفلسفية والدينية الماهايانية، وتعاليم اليوغا البراهمنية، لقد تلاءمت هنا تعاليم اليوغا التي طورتها عبادة الإله شيفا. وتأسست في إطار هذه التعاليم الجديدة تعاليم مترابطة متناسقة عن السحر. وقد عرضت هذه في مؤلفات خاصة دعيت بالتانترا. وقد عولجت هنا في هذه المؤلفات شتى المسائل، لاسيما: كيف يمكن اكتساب قوى خارقة؟ وكيف يمكن استخدام هذه القوى لبلوغ المراد؟ وصيغت لهذا الغرض صيغ صوفية مختصرة (دهاراني)، وحلقات سحرية (ماندلا)، وحجب (مودرا). كما كان للاغتسال الصوفي وسوى ذلك من الطقوس دور مهم، وكانت المرأة تؤدي في هذا كله دوراً بارزاً. لقد اعتقدوا أن الصيغ السحرية تعطي إمكانية لتحقيق سلطة على الآلهة، والريح، والمطر، وكانت لهذه الصيغ (التعاويذ السحرية) قوة الشفاء من الأمراض، ودرء خطر لدغة الثعبان، والسم، والكواكب الشريرة، وما إلى ذلك. وبعد مرور نحو ستمئة عام أنشأ تيار البوذية هذا زعامة له في التيبيت (ما يشبه منصب البابا). ويعتقد أن هذا لم يحصل قبل العام 1260م. لقد انتشرت البوذية من الهند، لا نحو الشمال فقط، بل إلى البلدان الأخرى أيضاً: إلى الصين، ومنغوليا، ونيبال، واليابان. ولكن البوذية في الصين لم يكن لها مركز قيادي واحد. فكانت حالة الرهبان فيها شبيهة بحالهم في الهند: عاشوا في أديرة مبعثرة في مختلف أرجاء البلاد. وكانت البوذية قد دخلت إلى الصين في العام 61م، وسرعان ما تحولت في القرن الميلادي الرابع إلى ديانة رسمية للدولة. والحقيقة أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً. فبعد انصرام عدة قرون، لاقت البوذية في الصين مقاومة شديدة من قبل أنصار تعاليم كونفوشيوس. وفي العام 1206م، انتقلت السلطة في الصين إلى سلالة منغولية، الأمر الذي انعكس إيجاباً على أوضاع البوذية هناك. ففي ذلك الوقت كانت البوذية في الصين قد انقسمت إلى تيارين كبيرين، إلى كنيستين بوذيتين. إحداهما كنيسة الفويستيين. وكلمة «فو»، هي ما تحولت إليه كلمة بوذا نفسها. وحملت الكنيسة الثانية اسم لام، أو على الأصح، لاما، وهي كلمة تيبيتية معناها «الأعلى». وقد انتقلت هاتان المدرستان من التيبيت إلى الصين (عبر منغوليا). ويتركز التباين بين المدرستين (الكنيستين) في طقوس العبادة. وهما متمايزتان تمايزاً كبيراً من حيث ظاهر التنظيم، والموقع الذي تشغله كل منهما في الدولة. فالفويستيون ليس لهم كهنوت قيادي. وكل دير قائم بذاته. وكان رئيس الدير: القيّم أو الابات، يعامل معاملة موظف من الدرجة الثانية عشرة. وعلى هذا النحو حدد وضعه في الدولة. أما اللامات فقد شكلوا فئة مغلقة تكفّلت الدولة بكفايتها من كل شيء. وفي بعض الأقاليم كان اللاما يجمع بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية. لقد انتشرت اللامائية في الصين في الأماكن المتاخمة للتيبيت ومنغوليا. أما في المناطق الوسطى، فإن الأديرة اللامائية قليلة العدد. وثمَّة في الأقاليم الحدودية

المذكورة مجموعة من الأديرة اللامائية الشهيرة، التي يزورها الحجاج منذ زمن بعيد.

ومع مرور الزمن تبدل نظام القبول في الطائفة البوذية تبدلاً مبدئياً. وكما رأينا فقد كان الانتماء إلى البوذية في بادئ عهدها، حراً تماماً، وكذلك الانسحاب منها. ونحن أشرنا سابقاً إلى أن تلك الحرية لم تفض إلى أي شيء ذي قيمة. فقد كانت نتيجتها الفوضى، والاستبداد، والنكوص الكامل عن تعاليم بوذا، إضافة إلى مختلف ضروب إساءة استخدام التعاليم. وتحفل النصوص البوذية بكثير من الأوصاف الجميلة لمختلف الأمثلة التي تبين الجانب الآخر لهذه الحرية. فقد ساقت النصوص مثلاً، المعطيات الآتية: في مدينة راجاغريها شاعت شهرة المدعو أوبالي، زعيم زمرة الأتراب السبعة عشرة؛ فقد كان والدا الفتى قلقين في بحثهما لولدهما عن حياة هانئة يسيرة خالية من الهموم؛ فإذا ما صار كاتباً، فكّر الوالدان، قد يعاني من ألم في أصابعه، وإذ ما صار ناسخاً، فقد تتأذى عيناه؛ وعلى هذا النحو استعرض الوالدان شتى المهن ثمَّ توقفا عند أكثرها سهولة، ألا وهي مهنة راهب بوذي. ولم يكن اعتقادهما هذا بعيداً عن واقع الأشياء، فبهذه المهنة ستكون حياة ابنهما ملائمة جداً: سينام تحت سقف وغطاء، وسيأكل جيداً.

وقد أعجب الابن أيما إعجاب باختيار والديه؛ فهو لم يكن يحب العمل على أي حال. وناقش الفكرة مع أترابه، فاتفق جميعهم ومضوا فريقاً واحداً، وانضموا إلى الطائفة البوذية من غير عناء. ولكن الخلافات ظهرت منذ اليوم الأول. فمنذ الصباح الباكر أخذ الفتيان يطالبون بطعام طيّب. فشرح لهم الرهبان أنه ينبغي عليهم أن يمارسوا في الصباح التمارين الروحية، ويدرسوا تعاليم بوذا، ويحملوا بعد ذلك قدورهم ويجولوا على المؤمنين يطلبون منهم الحسنات. وإذا ما أحسن الآخرون لهم، يمكنهم عندئذٍ أن يأكلوا. فأجاب الفتيان على ذلك بعصيان وشغب. ولما سمع بوذا بالأمر، أعطى تعليمات بعدم قبول الأعضاء الجدد في الدير قبل تمام العشرين من العمر، لأن الفتيان ليسوا مؤهلين قبل بلوغ سن الرشد، لا روحياً ولا فيزيائياً لأن يصبروا على متاعب حياة الرهبنة. وهكذا أقر منذئذٍ عدم قبول أحد راهباً، قبل أن يكون قد أتم العشرين من العمر.

لقد كانت مسألة العضوية إذاً، قد طرحت نفسها بإلحاح شديد، لاسيما بعد وفاة بوذا، حيث كان في الأديرة البوذية آلاف من الرهبان الذين لم يسمعوا يوماً بتعاليم بوذا الحقيقية. لقد كانت غاية هؤلاء واحدة: الإثراء السريع على حساب المؤمنين، والعيش حياة هانئة أرادوا أن يفهموا أنها ليست سوى استغراق متواصل في التأمل. وكان يمكن الالتحاق بالدير منذ سن الخامسة عشرة، ولكن ليس بصفة راهب، بل بصفة مستمع. وهناك كان المستجدّ يخضع خضوعاً تاماً لسيطرة أحد الرهبان الأكبر سناً: المرشد. ولم يقبل الرهبان في صفوفهم مجرمين، أو مدينين، أو فلاحين أقنان، أو جنوداً. واتخذوا الموقف عينه من المشوّهين والمصابين بأمراض معدية. كما فرض الالتزام بتأدية شعائر طقس التكريس في

الرهبنة. وقد انقسم طقس التكريس هذا إلى تنويعتين، أو درجتي تكريس، ودعيت الدرجة الأولى «خروجاً»، «رحيلاً» (برافراجي). والمقصود هنا هو الخروج من الحياة المدنية. وقد يكون خروجاً من طائفة أخرى. لقد قالوا عن الذين كانوا يمضون في عضوية الأخوية الرهبانية: «إنه يخرج من الوطن إلى اللاوطن». ولذلك دعوه برافراجيتا، أي «الخارج»، ذلك الذي رحل. وعملياً كان كل من يرتدي رداء أصفر، ويقص شعر رأسه، ويحلق لحيته، ويردد أمام راهب مكرس، ثلاث مرات، وهو في وضعية الاحترام والتبجيل تعبير: «ألوذ بك»، يصير إلى «خارج». أما من كان يأتي إلى البوذية من ديانة أخرى، فقد كان ينبغي عليه بالضرورة أن يجتاز مرحلة تجربة وإعداد مدّتها أربعة أشهر. ومع أنه ثمَّة نصوص أوردت مثل هذه المعلومات، إلا أنّ نصوصاً أخرى لم تشر إليها. وتقول النصوص: إن المرحلة التجريبية كانت ملغاة بالنسبة لمن أراد أن ينتمي إلى الطائفة من سلالة بوذا. وقد قال بوذا في هذا الشأن: «إني أمنح أقاربي هذه الميزة». لقد كان المنتسب الجديد إلى عضوية الرهبنة، أو إلى درجة مستمع، يختار لنفسه مرشدين من بين الرهبان، ليقودانه إلى رحاب تعاليم بوذا.

أما درجة التكريس الثانية التي دعوها «البلوغ» (أوباسامبادا)، فقد كانت تجري في احتفالية أكبر، ومراسم أكبر فخامة. لقد كان كل شيء يجري في اجتماع الطائفة، الذي كان يجب ألا يحضر أقل من عشر أعضائه الذين لهم كامل الأهلية. فيقدم المرشح للعضوية إلى المجتمعين، ويطلب مرشده منهم قبوله في الطائفة لأنه يستحق أن يكون عضواً فيها. ثمَّ تُعطى الكلمة للمرشح نفسه. وكان هذا يجب أن يرتدي رداء يغطي جسده وكتفه الأيسر (يجب أن يبقى كتفه الأيمن عارياً). فيؤدي أمام الحضور انحناءة تعبّر عن احترامه العميق، ويجلس أرضاً. وفي وضعية الاحترام تلك كان المرشح يطلب ثلاث مرات قبوله عضواً في الطائفة. وكان عليه في كل مرة أن يرفع يديه فوق رأسه ضاماً كفيه بعضهما إلى بعض. بعد ذلك كان رئيس الجلسة يأخذ من المرشح عهداً بألا يقول سوى الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة، ثمَّ يطرح عليه أسئلة كان يجب على المرشح أن يجيب عليها بدقة ووضوح. وكانت تلك أسئلة من قبيل: «هل في جسدك دمامل؟ هل تعاني من البرص، أو السل الرئوي؟ هل أنت مدين؟ هل تملك ضروريات حياتك الجديدة من ملابس وقدر الحسنات؟ ما اسمك؟ من هو مرشدك؟ و... وإذا ما سار الحديث وانتهى على ما يرام، كان رئيس الجلسة يخاطب الحضور بالكلمات الآتية (يكررها ثلاث مرات): «أيتها الطائفة السامية أصغي! إن تلميذ الجليل (يذكر اسم المرشد) هذا (يذكر اسم المرشح) يطلب الأوباسامبادا من الطائفة. ولا شيء يمنع قبوله، لأن لديه قدر الحسنات، وما يكفيه من الملابس. هذا (فلان) يطلب الأوباسامبادا من الطائفة وإذا كانت الطائفة راغبة، فلتمن على (فلان) ومرشده بها. ذلكم هو العرض أيتها الطائفة السامية، أصغي! مَن مِن الإجلاء يوافق على منح الأوباسامبادا للتلميذ (فلان) ومرشده (فلان) فليصمت، ومن لا يوافق

فليتكلم!». وإذا ما صمت جميعهم فإن الرئيس يعلن الآتي: «إن الطائفة تمنّ على (فلان) ومرشده (فلان) بالأوباسامبادا ؛ ولذلك فهي تصمت؛ وهكذا إنني أقبل». ثمَّ كان يحدد بعد ذلك وقت الحدث وفق طول الظل، ويمجد الفصل واليوم، ويثبت قوام الطائفة. ويخبرون المرشح «بمصادر العون الأربعة»، وهي: كيف ينبغي عليه أن يحصّل الأشياء الضرورية لعيشه، أي القوت، وكيفية استجدائه، والملابس التي ينبغي أن تخاط من قطع القماش البالية التي يجدها مرمية هنا وهناك، والمضجع عند جذور الأشجار، والبول كدواء، وسمحوا للراهب أن يقبل من المؤمنين التقدمات، التي تحسّن شروط عيشه. وقد تكون هذه ملابس كتانية، أو قطنية، أو حريرية، أو صوفية، أو من القنب. ومن المأكولات: حليب البقر الطازج، والزيت النباتي، والعسل، والعصير وقت المرض. وأجيز للراهب أن يقيم في دير أو منزل أو كوخ. كما كان من حقه أن يقبل دعوات إلى تناول وجبات الغداء عند المؤمنين في منازلهم. إذاً، لم تكن «مصادر العون الأربعة» سوى الضروريات التي تحدد الشكل الصارم لعيش الرهبان، ثمَّ بعد ذلك يطلعون الراهب الجديد على «أشياء أربعة» يجب تركها. وهي الاتصال الجنسي (حتى مع الحيوانات)، والاستيلاء عنوة على أي شيء، حتى الحشيشة؛ وقتل أي كائن حي، حتى الديدان والنحل؛ والتفاخر بسمو الكمال البشري الذي حققه، لقد حرّم عليه مجرد النطق بقول مثل: «يعجبني العيش في المنازل الخالية». وعند هذا الحد كانت تنتهي طقوس التكريس، طقوس «البلوغ» (أوباسامبادا). وقد أكد المتخصصون الذين شهدوا هذه المراسم، إنها تمثل مشهداً احتفالياً رائعاً، وتترك انطباعاً مؤثراً.

إن مراسم التكريس التي وصفناها هنا، يتميز بها البوذيون الجنوبيون. أما الكنيسة البوذية الشمالية، فإنها تأخذ بدرجة تكريس ثالثة إضافة إلى الدرجتين المعروفتين عند الجنوبيين. وتقام مراسم هذه الدرجة في العام السابع أو التاسع من حياة الراهب. فتستعرض في أثناء ذلك خلاصة حياة الراهب وسلوكه إبان الحقبة المنصرمة. وإذا ما تبين أنه ارتكب أي هفوة تخالف أيا من الوصايا الأربع الرئيسة، أو إن وجوده في الطائفة لا يتوافق ومبادئها، فإنها لا تتردد في اتخاذ قرار بطرده من صفوفها طرداً دائماً أو لوقت معلوم. لقد كان لكل راهب كامل الحرية في أن يترك حياة الرهبنة وقتما يشاء، كما كان له الحق في أن يفعل هذا كله بصمت أو يعلنه بحضور شهود. ونحن كنا قد أشرنا سابقاً إلى أن سهولة الانضمام إلى الطائفة والخروج منها، قد استغلت استغلالاً سيئاً، إذ تحولت الطائفة إلى ما يشبه المخبأ. فمنذ عهد الملك بيمبيسارا، كانت الطائفة تحظى بالحصانة. ولذلك لم يكن غريباً أن ينتمي إلى الدير كل من كان يريد أن يتخلص من الخدمة العسكرية، أو يتفادى عقاباً استحقه بسبب سرقة أتاها، أو أي إثم آخر اقترفه. كما لجأ إلى الدير عدد غير قليل ممن عضهم الفقر، فالحياة في الدير كانت بالنسبة لهؤلاء أكثر ملاءمة. ويؤكد المتخصصون إن هذا الأمر ممكن فقط عند البوذيين الجنوبيين، بسبب مرونة

مواثيقهم وتعليماتها. فحتى وقتنا هذا يمكن للراهب هناك، أن يخرج من صفوف الطائفة من غير عائق، وفي أي وقت مناسب له. وبالسهولة عينها يمكن أن يعود ثانية. أما البوذية الشمالية، فإنها تحرم مثل هذا السلوك بعد الدرجة الثالثة من التكريس.

لقد كانت زيجات أولئك الذين ينخرطون في صفوف الطائفة، تلغى تلقائياً. وتغدو زوجة الراهب زوجة سابقة، مع كل ما يترتب على ذلك من نتائج، كما حرم على الراهب أن تكون له ملكيته الخاصة، ولذلك كان هذا يفقد حقه في كل ما كان يملك قبل أن يغدو راهباً. وحرم عليه في هذا السياق عينه، أن يكتسب أي أملاك؛ وإذا ما لوحظ أنه ينتهك هذا التحريم، فإنه ينبغي عليه أن يعلن ندمه وتوبته ويتنازل عن نقوده للطائفة. وكانت النقود تعطى عندئذٍ لخادم الدير، أو لأي مؤمن لتشتري بها للطائفة زيت زيتون أو زيتاً نباتياً أو عسلاً. ولم يكن المذنب يعطى من هذا شيئاً. أما إذا ما رفض المؤمن أن يلبّي طلب الطائفة بشراء المطلوب، فقد كانوا يرجونه أن يحمل النقود المعنية، ويرميها في أي مكان. وإذا ما رفض أن يؤدي هذا أيضاً، عندئذٍ تودع النقود لدى الراهب الأكثر وقاراً واحتراماً لدى الطائفة، فيطلب منه أن يدفنها في مكان لا يصل إليها فيه أحد في أي يوم من الأيام. ونحن كنا قد أشرنا إلى أن الرهبان أخذوا مع الزمن ينتهكون، في كل مكان، تحريم تلقي النقود. ولا يزال هذا الانتهاك قائماً حتى يومنا هذا.

ففي زمننا هذا تعد الأديرة البوذية في سيلان، كما في الهند الصينية، مؤسسات ثرية جداً. ومع ذلك فهي لا تزال تحافظ على تقليد طلب الإحسان، وهو عند رهبانها طقس يومي. أما في التيبيت ومنغوليا فإن الأمر مختلف، إذ بات طلب الإحسان أمراً نادر الحصول عملياً. ولا يجول طالباً الإحسان هنا سوى اللامات الجدد الذين أكثرهم من الغرباء. ويؤكد شهود العيان أن أكثر الذين يجوبون طالبين الحسنات هم من الرهبان الجشعين، الذين يركبون الحيوانات ويرافقهم تلاميذهم في تجوالهم. ويلجأ هؤلاء إلى مختلف أساليب الاستجداء، ويتوسلون المؤمنين منحهم النقود والحيوانات المنزلية. وما يحصل للبوذية، هو نفسه الذي يحصل للمسيحية: تراجع تام عن المصدر البدئي للدين. وهذا ما يتصف به الإنسان بصرف النظر عن انتمائه الديني: الأولوية الأولى عنده للمال وتحقيق الثراء.

لقد عرفت البوذية الأولى قيوداً صارمة على ملابس الرهبان ومأكلهم. فلم يكن يسمح للراهب أن يقتني أكثر من ثوب واحد، وكان يجب أن يتألف هذا من ثلاثة أقسام وحزام. القسم الأول، هو الملابس الداخلية، وهذه عبارة عن سترة من نوع معين حلت محل القميص، وكان الراهب يرتديها على الجسد العاري مباشرة. والقسم الثاني، هو زي الرهبنة نفسه، وكان هذا عبارة عن سترة مميزة تصل حتى الركبتين، وتشد بالحزام. أما القسم الثالث، فهو المشلح، وكان هذا عبارة عن رداء يشبه المعطف، يرميه الراهب عبر كتفه الأيسر ليغطي رجليه، بينما يبقى الكتف

الأيمن وجزء من الصدر عاريين. والحقيقة أن ارتداءه على الكتفين معاً لم يكن محرماً. ونحن كنا قد أشرنا سابقاً، إلى أن لون الملابس يجب أن يكون أصفر، ملكياً كالذي كان يرتديه بوذا يوم ترك قصره الملكي. ولا يزال زي الرهبنة يحافظ على لونه هذا عند البوذيين الجنوبيين حتى يومنا هذا. أما البوذيون - اللاما الشماليون، فإنهم يرتدون معطفاً يميل لونه إلى الاحمرار. وثمَّة طائفة تدعى، ذوي القبعات الحمراء. وكل أجزاء ملابس هؤلاء من اللون البنفسجي أو القرمزي الأحمر. أما الفويستيون في الصين، فإنهم يرتدون كيفما اتفق لهم. لكنهم يميلون إلى اللون الرمادي. وما تجب الإشارة إليه، أن الشروط المناخية تختلف اختلافاً بيناً من بلد بوذي لآخر (منغوليا وسيلان مثلاً). وتختلف تبعاً لهذا ملابس الرهبان أيضاً. ففي لاداكا حيث المناخ شديد البرودة، يرتدي رهبان الطبقة الدنيا سراويل. ويرتدي اللاما في التيبيت ومنغوليا، عدداً من الملابس الداخلية بعضها فوق بعض. وعندما يشارك هؤلاء في المواكب بصفتهم من مقامات دينية سامية، فإنهم يرتدون حبريات واسعة متموجة. لكن الرهبان في البلدان الجنوبية الحارّة، لا ينتعلون عادة أي حذاء، ولا يضعون على رؤوسهم أي غطاء. أما في الشمال فهم ينتعلون الجزم أو الأحذية. وتعد القبعة من الضروريات التي لا غنى عنها نظراً لبرودة المناخ، ولأن ألوانها المختلفة تميز درجات رجال الدين. فبألوان القبعات والملابس (اللون الأصفر)، يتميز رجال الدين في البوذية الشمالية أو اللامائية، على صورتها التي أقرها تسزونهافا في القرن 15م، إنهم «ذوو القبعات الصفراء». أما تعاليم البوذية السابقة، التي حافظت على درجة كبيرة من أصالتها عند البوذيين الجنوبيين، فقد دعي أتباعها «بذوي القبعات الحمراء».

ولتسلّم الملابس التي كان يتصدق المؤمنون بها على الرهبان وحفظها وتوزيعها، عينوا راهباً خازناً. ولكن توزيع هذه الملابس لم يكن منوطاً به، إذ كان التوزيع يجري بالقرعة. وإذا ما توفى أحد الرهبان، فإن ثيابه، وقدر الحسنات كانت تؤول إلى الراهب الذي كان يعتني به. وإذا ما ترك الراهب المتوفى أي أشياء أخرى، فإنها تضم إلى ملكية الكنيسة كلها. وكانت صيغة هذا الفعل تسمّى نقل الملكية إلى «طائفة الحاضرين والغائبين من جهات الكون الأربع».

وكان قدر حسنات الراهب يبدو على الشكل التالي: قدر كبير بعض الشيء، شكله مستدير، قاعه بيضوي، له فتحة في الأعلى. وغالباً ما كان القدر حديدياً، ولكن كان ثمَّة قدور طينية وأخرى خشبية. وكان القدر يغطى من الخارج بقشرة زرقاء أو سوداء. لقد كان الراهب يحمل قدره هذا بيده، لكن هذا التقليد تبدل عند اللامائيين، فلم يكن هؤلاء يحملون قدراً كبيراً، لأنهم غالباً ما كانوا يعزفون عن طلب الحسنات. لكنهم كانوا يحملون دائماً قدراً خشبياً يعلقونه بالحزام، ومنه يأكلون. وفي منغوليا يحمل اللامات معهم زمزمية مليئة بالماء، ولكنهم لا يشربون منها مباشرة. بل يسكبون ماءها في أكفهم ويشربون. ولم يكن هذا مجرد إرواء عطش، بقدر ما كان ضرباً من ضروب التطهر.

لقد كان الالتزام بقواعد النظافة في المشاعة صارماً جداً. فقد كان مفروضاً على الرهبان قص شعر رؤوسهم، وحلاقة شعر لحاهم مرتين كل شهر (يوم ينتصف القمر، ويوم يظهر الهلال). وأخذت القواعد بالحسبان، تأدية التدابير الصحية كلها: تنظيف الأسنان، تقليم الأظافر، وما إلى ذلك. وبعد زمن طويل توقف رهبان الشمال عن حلق شعر لحاهم.

وكان المصْفى من الأشياء الضرورية في أمتعة الراهب؛ فبه كان هذا يصفّي الماء الذي يشربه، وبه كان ينقذ حياة كثرة لا عد لها من الأحياء الصغيرة، التي كان يمكن لولا المصْفى أن يبتلعها مع الماء الذي يشربه. كما كان على الراهب أن يحمل معه إبرة للخياطة. وهكذا كان يجب أن تتألف مقتنيات الراهب من ثلاثة أقسام: الملابس والحزام، وقدر الحسنات، والمصْفى والقبعة. هذا ما كان في الزمن القديم. ثمَّ أجيز له فيما بعد أن يحمل عصا. ولا يرتدي البوذيون الجنوبيون قبعة عادة. ولكن سمح لهم أن يحملوا مظلة يتقون بها أشعة الشمس الحارقة، لا سيما أنهم كانوا حليقي الرؤوس. ويحمل اللامات معهم صولجان الصلاة. وفي أثناء تأدية صلواتهم، كانوا يدوّرون هذا الصولجان في مختلف الاتجاهات، كما كانوا يحملون جرساً، وطبلاً من الجماجم البشرية، ودفاً صغيراً، وسبحة، وحجاباً، وكتيّباً. وعندما كانوا يطلبون الحسنة، كانوا ينفخون في بوق من عظم قصبة بشرية. وقد تبدلت العصا عند اللامات كثيراً، وتغير غرضها، فعصا الشحاذ تحولت إلى «عصا الإشارة». وهذه الأخيرة تنتهي بحربة ثلاثية، أو بحلقة على شكل ورقة. وعلى الحربة خواتم تصدر أصواتاً أثناء الحركة. وليس الغرض من الأصوات، هو الإعلان عن حركة الراهب، بل عزله عن صخب العالم المحيط. كما كان يجب أن تنبه أصوات عصا الإشارة الكائنات الصغيرة كي لا يطؤها الراهب.

ومن المعرف أن بوذا لم يشجع على أن يراكم الرهبان أرزاقاً كثيرة في الأديرة، ويقضون فيها حياة ساكنة مكتفية. ولم يكن بوذا مخطئاً إذ رأى أنه ينبغي على الراهب أن يكون في الطريق دائماً، لكي ينشر التعاليم باسم خلاص البشر. ونحن رأينا إلى أي درجة من الانحطاط هبط رهبان دير العاصمة، عندما امتنعوا عن تأدية أبسط واجباتهم. وكان بوذا قد رأى أنه يجب على الرهبان أن يقيموا مبعثرين في الغابات والكهوف. والواقع أن هذه الأماكن كانت على مقربة من المراكز السكانية، وإلا كيف كان سيحصل الرهبان على قوتهم. ولكن في الوقت نفسه، أجيز للرهبان أن يزوروا المدن والقرى في أوقات محددة، ليجمعوا الحسنات فقط. أما الأديرة المريحة المعدة لإقامة مئات أو آلاف الرهبان، فلم يكن لها في زمن بوذا وجود. فقد كان على كل راهب أن يهتم بنفسه لكي يكون له سقف فوق رأسه. فبنى الرهبان الأكواخ من الأشجار، أو حفروا الحفر وكسوها بالأعشاب. ولم يكن لهم في أثناء ذلك أن ينتظروا أي مساعدة من المؤمنين. لقد كان الرهبان يعيشون منفردين. والحقيقة أنه كان مسموحاً لهم أن يتجمعوا في

جماعات صغيرة. وفي مواسم الأمطار، كان الرهبان يتجمعون ويعيشون حياة الاستقرار. وكان المؤمنون يتبرعون ببناء مساكن لهم في مثل هذه الفصول، مساكن جماعية (فيهارا). وقد حاول الرهبان أن يؤسسوا هنا جواً مريحاً دافئاً.

ونشير في هذا السياق إلى أنه كانت توجد هنا حمّامات دافئة، وممرات مسقوفة للتنزه (لقد كان هطول المطر يتواصل هنا أشهراً). وهكذا شيئاً فشيئاً أخذ الرهبان يعتادون على الإقامة في هذه الأماكن وقتاً مافتئ يطول ويطول. وقد كانت هذه هي الطريق التي أفضت مباشرة إلى تأسيس الأديرة. وكان الرهبان قد خلفوا وراءهم منذ زمن مديد، تقليد تناول وجبة واحدة في اليوم. لقد هيأوا الآن لأنفسهم نمط عيش لا تقيده هذه القيود. زد إلى هذا أن المشروبات الروحية أخذت الآن مكانها على موائدهم. وقد مهد السبيل إلى هذا غياب الرقابة في الأديرة اللامائية، وعدم وجود الموائد المشتركة، وشيوع عادة أن يأكل كل راهب بمفرده. كما كان لكل راهب اقتصاده المستقل.

لقد أشرنا سابقاً إلى أنه كان ينبغي على الراهب أن يترك كبرياءه خارجاً قبل أن ينتمي إلى طائفة البوذيين أو يدخل الدير البوذي، وكان هذا واحداً من شروط اعتناق البوذية. وعلى وجه العموم، فإن الديانات كلها عدت الكبرياء إثماً كبيراً. لكن ما يجب قوله، هو أنه إذا كان المسيح ومحمد لم يقربا إثم الكبرياء، فإن بوذا سلك سلوكاً مغايراً تماماً. فمحمد مثلاً، كان يكرر دوماً أنه ليس سوى رسول الله، وأن رسالته هي نقل تعاليم الله إلى الناس، أي إيصال القرآن إليهم، وبعد ذلك هم وشأنهم. أما بوذا فقد وضع نفسه فوق مقام كل إله. ولكن الإله قاض له. ومع ذلك وضع بوذا وصيته للمؤمن العادي: لا تفاخر بسمو الكمال البشري الذي بلغته. وبما أن النصوص البوذية القديمة كانت توضح موضوعاتها الأساسية وتشرحها بالأمثلة، فقد ساقت المثال الآتي لبيان هذه الوصية.

عندما قضى الرهبان فصل الأمطار مرة في أرض فريجي على ضفة نهر فالغومودا، انتشرت مجاعة قاسية. ومن الواضح أن هذا قد طال الرهبان أيضاً. فاقترح المجتهدون منهم أن يخدموا عند المؤمنين، ليحصلوا على لقمة العيش. لكن اقتراحهم رفض، وأخذ باقتراح مؤداه، أن يمدح الرهبان بعضهم بعضاً أمام المؤمنين مبرزين في أثناء ذلك تفوقهم الخارق. ويبدو أن الفلاحين الجائعين قد استجابوا، واطعموا رهبانهم الكسالى هؤلاء جيداً، لأنهم كانوا يمتلكون سمات الكمال البشري الأسمى. وبعد أن انقضى فصل الأمطار، عاد الرهبان إلى طائفتهم، إلى بوذا، وكانت وجناتهم حمراء منفوخة خلافاً لزملائهم الرهبان الآخرين. وقد كان عليهم أن يعترفوا كيف نجحوا في ترتيب شؤون معيشتهم. ولتفادي تكرار مثل هذه السابقة، وجد بوذا نفسه مضطراً لإضافة هذه الوصية: «لا تفاخر بكمالك البشري الأسمى». بيد أن الوصية لم تردع الرهبان إلا لبعض الوقت. أما بوذيو الشمال اللامائيون فإنهم من دون وازع من ضمير، يصوّرون الأمر، كأنهم تحت وصاية الآلهة مباشرة. وهذا ما يقدم لهم مساعدة فعالة

لمضاعفة مدخولهم. ولكن اللامات في الشمال لا يكتفون بالادّعاء بأنهم وسطاء بين الآلهة والناس، بل مارسوا المداواة، والتنبؤ، وطرد الأرواح الرديئة. وقد كتب المتخصصون عن هذا ما يلي: «كل رزية تقع داخل البيت أو خارجه، يتهم بها شيطان ما، ولا يستطيع أحد أن يحدد أي شيطان فعل هذا سوى اللاما، لأن كل شيء مكتوب في كتبه؛ ولا أحد له القدرة على إخراج الشيطان الشرير سوى هذا اللاما نفسه. لكن الأمر يحتاج إلى جهود مضنية، بمعنى آخر، إنه يجب بذل مزيد من المال». ويتوفر اللاما المعاصرون على مصادر دخل أخرى أيضاً، فهم يرسمون الأيقونات، ويكتبون الكتب، ويصنعون السبحات والحجب ومختلف ضروب الخرز البراق، كما يعملون في الزراعة وتربية الحيوانات، ويصنعون الأحذية، ويخيطون الملابس، وما إلى ذلك. وليس لهذا كله أي غرض آخر سوى تحصيل مزيد من الأموال والقيم المادية الأخرى. وهذا بحد ذاته ليس سوى تراجع كامل عن جوهر الرهبنة. ومن البدهي أنه كان يجب على الرهبان أن يعملوا، بيد أنه يجب عليهم أن يبتعدوا عن روح الجشع، والطمع، والسعي إلى مراكمة الأرباح، وإلا، أي طريق بر هذه التي يسيرون عليها؟ زد إلى هذا أن الذي حددها إنسان (بوذا) وضع نفسه فوق كل الآلهة. إنه هراء خالص.

لقد كان رهبان زمن بوذا يشرعون بقراءة الناموس ونظام الانضباط عند شروق الشمس. ويقضون ساعات الصباح كلها بالقراءة، والنقاش، والتحليل. وكانت حياتهم اليومية تجري على ضوء هذا القانون. فبعد جولة جمع الحسنات، وتناول وجبة الغداء، وانقضاء وقت القيلولة، كان الرهبان يجلسون حتى وقت متأخر من الليل يدرسون القانون، ويمارسون طقوس الاستغراق في التأمل الذهني، أو ينصتون إلى روعة سكون الليل بصمت تام (الصمت النبيل). وكان المؤمنون يئمون الطائفة أو الدير بين الحين والآخر، طلباً للسكينة أو النصيحة.

أما الأديرة النسائية فليس لها وجود عند البوذيين الجنوبيين. وليس في أيامنا هذه من مرشحات لدخول الدير، سوى النسوة الكبيرات السن، أو الأرامل المسنات اللواتي ليس عندهن أبناء، وإذا قُبلن، فأنه ينبغي عليهن أن يقصصن شعر رؤوسهن، ويرتدين رداء أبيض، ويقمن على مقربة من الدير، أو في داخل الدير، لكن في صوامع خاصة بهن. وتجمع هؤلاء النسوة الحسنات للدير، وتؤدين أعمال النظافة فيه، وتأتين بالماء للرهبان، وتؤدين مختلف ضروب الأعمال الصغيرة، ومن حق الراهبة أن تترك الدير في أي وقت تشاء. وإذا ما لوحظ وجود خلل ما في سلوكها، فإن رئاسة الدير تطلب منها ذلك. وهذا هو المعمول به عند البوذيين الشماليين. أما في الصين نفسها، وفي بلدان الهيملايا والتيبيت، فلا تزال الأديرة النسائية قائمة.

في زمن بوذا كانت طقوس العبادة في الطائفة محدودة جداً. فلم يكن الرهبان يجتمعون سوى مرتين في الشهر للاحتفال بأيام الأوبافاستها: يوم ظهور الهلال، ويوم انتصاف القمر. وكانت مشاركة الرهبان بهذين الاحتفالين إلزامية.

فقد كان هؤلاء يتوافدون من شتى الأرجاء إلى المكان المحدد وفي الوقت المحدد. ولم يكن يستثنى من الحضور حتى المرضى، فقد كانوا يحملونهم إلى مكان اللقاء، أو كان اللقاء نفسه يجري عند مضجع المريض منهم مرضاً شديداً. لقد كان مكان اللقاء يضاء بالمشاعل، فيما يجلس الرهبان على مقاعد صغيرة. ولم يكن قوام المجتمعين يتألف إلا من الرهبان المكرّسين. وهنا كان يقرأ الكتاب المقدس: البراتيموشكا. فيفتتح رئيس الجلسة الاجتماع بالكلمات الآتية: «المجد للسامي، المقدس، الكامل الصحوة؛ أصغي أيتها الطائفة! فاليوم هو اليوم الخامس عشر من الشهر، يوم الأوبافاستها. وإذا رغبت الطائفة، فلتؤدي طقوس الأوبافاستها، ولتقرأ البراتيموشكا بصوت مسموع. ولتعلنوا أنتم أيها الأجلاء، ما إذا كنتم طاهرين من الإثم، وسأبدأ أنا أقرأ البراتيموشكا». وعندما تجيبه الطائفة بصوت واحد: «سوف نستمع بانتباه ومن القلب». و «من اقترف إثماً فليعلن عنه، ومن لم يفعل فليصمت. ومن من الرهبان الذين سئلوا ثلاث مرات، لا يعلن عن إثم ارتكبه، سيكون مذنباً بالكذب المقصود. والكذب المقصود أعلنه السامي عقبة كأداء على طريق الخلاص، ولذلك فليعلن كل راهب عن أي إثم يعرف أنه ارتكبه، ويرغب في أن يتحرر منه. فالاعتراف يحمل إليه راحة النفس». وبعد ذلك يسأل كل راهب عدداً من الأسئلة. لكن كثيراً من هذا تغير الآن، إلا في سيلان، حيث يجري كل شيء، أو تقريباً كل شيء، على هذا النحو بالضبط.

ويحتفل الرهبان مرة كل عام، بعيد الدعوة (البرافارانا). ويدعى هذا العيد باسم آخر أيضاً: عيد الاستدعاء. ويحتفل البوذيون به في آخر موسم الأمطار، عندما يبدأ موسم التجول. وفي أثناء الاحتفال بهذا العيد، يجري أيضاً الاعتراف علناً بالآثام المرتكبة. وكان يشارك في هذه اللقاءات الاحتفالات، رهبان المنطقة المعنية كلهم من غير استثناء. وهنا كان يسأل كل راهب زملاءه بإلحاح، عما إذا كان قد ارتكب أي إثم بحق أي منهم. وفي غضون ذلك كان الراهب يرمي معطفه على كتفه الأيسر، ويجلس على الأرض رافعاً يديه، ضاماً راحتيه بعضهما إلى بعض مردداً ثلاث مرات: «أدعو أخوتي، والطائفة: هل تعرفون عني شيئاً، أو سمعتم شيئاً، أو هل لديكم شكوك حولي، قولوا لي أيها الأجلاء ما إذا كان لديكم شيء من هذا، رحمة بي. وإذا ما عرفت فإني سأعلن ندمي وتوبتي». ولكن هذه الاعترافات العلنية تحولت مع الزمن إلى اعترافات شكلية صرف. وإذا ما وقعت صدامات، أو انتهاكات للميثاق، كانت تسوّى مسبقاً، وفي دائرة ضيقة.

وفي زمن بوذا نفسه كانت الطقوس تنتهي عند هذا الحد. ولكن عبادة الذخائر وتبجيل الأماكن المقدسة، أخذا يظهران في وقت مبكر جداً. وكانت المهابارينيباناسوتا قد خبّرت، أن بوذا نفسه أشار إلى أناندا بأربعة أماكن يجب أن تحظى بالاحترام لدى كل مؤمن ينتمي إلى أسرة صالحة، فيرى أنها جديرة بأن

تزار، وتؤثر في القلب. وكان المكان الأول منها، هو المكان الذي ولد فيه بوذا. والمكان الثاني، هو المكان الذي أدرك فيه بوذا صحوة العقل، وأدار للمرة الأولى عجلة الناموس الأكثر براعة (أي المكان الذي ألقى فيه بوذا موعظته الأولى). والمكان الرابع[1]، هو المكان الذي دخل فيه بوذا البارينيرفانا. وقال بوذا، إن زيارة هذه الأماكن الأربعة واجب على الرهبان والراهبات، والمؤمنين والمؤمنات. ووعد الذين يموتون بقلب نقي، وهم في الطريق إلى الحج إلى تلك الأماكن، بالبعث من جديد على الجانب الآخر للموت، أي في السماء.

لقد بجلت البوذية المتأخرة الذخائر تبجيلاً كبيراً. فحظي ناب بوذا مثلاً، بمعبد لا يضاهى. وأنشئت فيه مؤلفات خاصة. وأخذوا يصنعون فيما بعد أيقونات مأخوذة عن تماثيل بوذا. وأضافت البوذية الشمالية إلى الأيقونات صور براتيكا بودها، وديانيبودها ومختلف البودهيساتفا. كما شيدت معابد مهولة فخمة، ومصليات صغيرة على الطرقات، ومفارق الدروب، أو السهوب؛ وشيدت أيضاً أبراج للصلاة أنجبتها الأجران. وبنوا علاوة على ذلك كله، جدراناً حفروا عليها الدعاء نفسه: «أوم ماني بادمي هوم».

ويثير الفضول في هذا السياق، ابتكار لا مائي عرف بطواحين الصلاة. فبما أنه كان يجب ترديد الصلاة أكبر عدد ممكن من المرات، لذلك صارت الصلاة إلى مجرد تكرار آلي. وكانت هذه الآلية عبارة عن بنية يذكرنا شكلها بشكل البرميل أو الأسطوانة، مليئة بقصاصات ورقية كتبت عليها أدعية وصلوات. وقد تكتب هذه النصوص على سطح الأسطوانة. واعتقدوا أن تلاوة الصلاة أو تدويرها أمر سواء. لذلك كانت طاحونة الصلاة، هي المسرّع الآلي لترديد الصلاة. وثمَّة كمّ كبير من هذه الطواحين في متاحف أوروبا. وغني عن البيان القول: إننا لم نسق هذه الواقعة لنثير استغراب القارئ، إنما لنبيّن إلى أي مدى يمكن الابتعاد عن الجوهر نفسه. وكان المسيح قد علّم: توجه إلى الآب بأفكارك. فالصلاة إذاً، هي تواصل شخصي بين الإنسان والإله وجهاً لوجه. فأثناء تأدية الصلاة بصدق وإيمان، يتحول الإنسان، ويعتزم أن يتكيف مع الأفضل، أن يتوب عن آثامه، ويندم على ارتكابها. إن الصلاة فعل تطهر، وتحوّل نحو الصفاء. فعن أي آلات يمكن أن يجري الحديث هنا؟ نعم لم يترك بوذا صلوات. لكنه ترك إرشادات تدل

١- هكذا في النصّ الروسي. - المترجم..

على عمل الخير. والإيمان بغير فعل، هو إيمان ميت. ولكن أن تجعل أكثر وسائل التواصل مع الإله قدسية مجرد آلة طاحونة، فهذا كفر، وتطاول على الدين.